نائب عزرائیل

obeikandl.com

obeikandl.com

[ربما خلوت بنفسي وخلعت بدني وصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن فأكون داخلا في ذاتي خارجا عن جميع الأشياء فأري في ذاتي من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبا مبهوتا فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف الفاضل]

أرسطاطاليس

[اذا سمعت ما قلت لك يا ديوجانس وفارقت هذا البدن أصبحت سابحاً في عوالم الملك غير عائد الى الانسانية ولا قابلا للموت] .

فيثاغورس

obeikandl.com

الإهداء

هل سبق لغيرى من البشر أن أهدى لك كتاباً ؟..

هل سبق لسواى من المخلوقات أن صب فى أذنيك غزلا وتشبيباً ؟

هل قال لك أحد قبلى .. مثلا : « أحسن الأيام يوماً أرجعك ؟ »

قل الحق ولا تخجل ... طبعاً لا ... فما أهدى لك البشر سوى لعناتهم ... وما صبوا فى أذنيك سوى جام غضبهم ... وما نعتوك بأفضل من « مفرق الأحباب وهادم اللذات » .

ما رأيك إذاً فى محبكم الجديد ... وعاشقكم الأوحد ؟

لاتظن بقولى سخرية .. فما حاولت مرة أن أسخر من بشر ضعيف ... فما بالك بملك الموت العاتى الجبار !!

ولا تظن بقولى أيضاً تزلفاً ... فالتزلف لا يكون إلا

لخشية أو لحاجة ... وما كان بى من خشية منك ولا حاجة إليك ... فما أنا بمتعلق بالحياة حتى أخشاك ... وما أنا بكارهها حتى أحتاج إلى معونتك .

فإذا أبعدت عن ذهنك أننى ساخر أو متزلف ... وإذا أبعدت عن ذهنك أيضا أننى مجنون — أو على الأقل أننى لا أزيد عن بقية البشر جنوناً — لوضح لك وضوح الشمس أننى مخلص فى صداقتى .. فى دنيا عز فيها الإخلاص وامحى الوفاء .

هذا الكتاب يا سيد عزرائيل ... أنت بطله ... فهو منك وإليك ... حاولت فيه بدافع الوفاء لك أن أظهرك للبشر على حقيقتك ـ أو على ما أظنه ـ حقيقتك ... وأن أزيل من أذهانهم تلك الصورة الشوهاء الشنعاء التى يتخيلونك بها ... ولست أدرى إلى أى حد نجحت .. ولا إلى أى حد قد أرضيت ...

أجل ... إلى أى حد قد أرضيتك وأرضيت البشر وأرضيت نفسى ؟؟ أما عن نفسى ... فهى راضية ، ولست أشك أن فى رضاها مظهراً من مظاهر الغرور الذى

يلازم كل إنسان . . . أما عن البشر فلا أظن هناك إنساناً استطاع أن يرضيهم . . أما عنك . . فما رأيك ؟ ! !

لا تتسرع وتعلن سخطك . . واذكر أنني لم أقصد بكتابي إلا إنصافك وتقديرك . . وإنما الأعمال بالنيات .

لقد بذلت كل جهدي في محاولة تخيلك . . . فإن كنت قد اخطأت في رسمك من الذاكرة . . فاعلم أن الذنب ذنبك . . فأنت مفرط في التخفي ، مبالغ في التنكر . . قد يكون في هذا محافظة على هيبتك . . ولكن لِمَ لاتجرب مرة . . فترد إلينا بعض من أخذت عليهم يصفونك لنا ويحدثوننا عنك ، فيبددون بحديثهم بعض تلك الظلمات التي تحيط نفسك بها . . لو فعلت ذلك لوفرت على نفسك ما قد أكون أحطتك به من أباطيل ، وما قد أكون لصقته بك من ترهات وأكاذيب . . ولكنك لم تفعل . . ولن تفعل . . فاعذرني إن كنت قد أقدمت على إظهارك بمثل ما أظهرتك به . . فهذا هو كل مافي وسعي . . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

وهناك يا سيدي شيء آخر أخشى أن يثير حفيظتك

علىّ وأن تفهمه على غير ماقصدته . . وهى تلك المزح التى قد تلمحها بين صفحات الكتاب . . فقد تحملها محمل العبث ، ولكنى لا أشك أنك ستلتمس لى العذر إذا ما علمت أنى رجل أحب المزاح ، وأننى أرى أن المرء لا يربح من حياته إلا ساعات الضحك . . وإذا ما علمت أيضاً أن الإنسان بطبيعته مخلوق مهرج . . . وأنه لايغريه شىء كالهزل والتهريج . . وإنك إذا ما أردت منه أن يستمع إليك ، فاضحكه أولا ، ثم قل له ماتريد قوله . .

إذا ما علمت كل هذا فلا أظنك إلا عاذرى فى مجونى ولا أظن حديثى عنك إلا واقعاً من نفسك موقع القبول . . ولعلى أكون بذلك قد نلت منك الرضاء . . كل الرضاء . .

واننى يا سيدى فى انتظار اللقاء . . . إما على صفحات كتاب آخر أو فى السماء . . ما بى من خشية ولا رهبة فالحياة عندى والموت سواء !

والسلام عليكم ورحمة الله .

يوسف السباعى

الفصل الأول

عود من الآخرة

كنا نتدافع بالمناكب، ونتزاحم بالأيدى .. وكان الجو خانقاً حاراً .. وقد تصاعدت فيه رائحة كريهة هى خليط من الأنفاس والعرق وذرّات الثرى الذى أثارته الأقدام فعلق بالهواء .

وكان المنادى يصيح بصوته الجهورى بالاسم تلو الاسم .. فينتقل صاحبه شاقاً طريقه بين الأجساد المتراصة المتزاحمة فينفذ من باب ضخم آخذاً مكانه فى ذلك الطابور الطويل الذى يشق طريقه إلى الداخل .

وسمعت اسمى يفوه به المنادى .. ولكن كان به بعض التحريف .. أو قد يكون اسماً يشابه اسمى .. فلم أجب ، ولم يجب غيرى الذى قد يكون صاحب الاسم المحرف .. وتكرر النداء .. فصحت أوضح للمنادى خطأه .. وذكرت له صحة الاسم .. فنظر إلىّ

بعين ملؤها الغيظ والحنق ... ونادى الاسم مرة ثالثة مصرّاً على ما به من تحريف .. فلم أجب ... فانتقل إلى الاسم الذى يليه واستمر فى عمله .

وخف الزحام رويداً رويداً .. حتى وجدت نفسى أخيراً قد وقفت بمفردى . وقد كف المنادى عن النداء بعد أن نادى آخر اسم أدرج فى الكشف الذى معه .

وتنفس المنادى الصعداء .. وقد بدا عليه التعب والأعياء .. ثم وقع بصره علىّ فأصابته الدهشة ... وسألنى فى حنق :

— فيم وقوفك هنا .. وقد سار الجميع ؟

— إنك لم تنادِ اسمى ، بل ناديت اسماً يشبهه .. وقد حاولت أن أوضح لك الصواب .. فأصررت على الخطأ ..

— لا يمكن أن يكون هناك خطأ فى هذا الكشف .

— وكذلك لايمكن أن أكون أنا مخطئاً فى معرفة صحة اسمى لأنى أعرفه منذ عشرات السنين .

وبدا على الرجل الارتباك ، ثم أمسك بالكشف وألقى عليه نظرة فاحصة ، ثم هز رأسه فى دهشة .. وقال متلعثما :

— هذا عجيب .. هذا شىء لم يحدث لنا قط .. وأخشى أن يكون قد التبس الأمر عليهم .. فأحضروك إلى هنا خطأ .. إذ يخيّل إلىّ أن المطلوب هو صاحب الاسم الذى فى الكشف .. ولست أنت .. ولكن تشابه الاسمين جعلهم يستدعونك ويتركون الآخر ... هذا خطأ شنيع !! بل هو الأول من نوعه !! انتظر لحظة ...

وتركنى الرجل ، وأخذ يعدو إلى الداخل وقد بدا عليه ارتباك شديد ..

* * *

لم يكن هذا الجمع طلاب وظائف سيؤدون الامتحان .. ولم يكونوا مجندين .. ولم تكن الساحة كذلك فى إحدى الكليات وقد نودى على الطلبة المقبولين .. ولم تكن تلك الجموع تنتظر كشف هيئة

أو ما يماثله .. لم يكن هذا ولا ذاك .. وما كان هذا المشهد فى أى بقعة من بقاع الأرض .. بل فى الواقع أنه لم يكن فى هذه الدنيا بأكملها ، بل كان فى الآخرة !

نعم فى الآخرة ! .. ولا أظن أن هناك ما يبعث على الدهشة أو الشك فى ذلك .. فكلنا يعرف أن الآخرة موجودة فعلا .. وما هناك من أحد يستطيع المجادلة فى ذلك ! ..

وكنت قد رحلت من الدار الأولى إلى الدار الآخرة .. أو على حد تعبير أهل الدنيا — توفّيت — منذ بضعة أيام . وكان الانتقال سهلا بسيطا .. أسهل مما يتصور المرء .. بل هو فى الواقع أسهل انتقال ممكن حدوثه .. فهو — على الأقل — أسهل بكثير من انتقال الانسان من دار إلى دار فى الدنيا .. وخاصة فى هذه الأيام التى أضحى حصول الانسان على دار خالية أصعب من حصوله على الإخلاص والمودة بين أهل الأرض .. فما احتاج الانتقال إلى « خلو رجل » .. أو كتابة « كنتراتو » .. أو تنظيف الدار الجديدة .. ودفع

ثمن ما تلف من الدار القديمة .. ثم تأجير عربات لحمل « العفش » .. وفك الدواليب وتركيبها وتكسير الأطقم والمرايا .. ونقل عدّاد الكهرباء .. الخ ..

نعم .. لم يكن الأمر يحتاج إلى كل تلك المتاعب التى تواجه المرء عند الانتقال من دار إلى دار ، فى نفس الدنيا .. بل كان الأمر من السهولة بحيث لو أدرك الأحياء ذلك لما بقى منهم مخلوق فى هذه الدنيا الكريهة البغيضة .. وقد يكون هذا هو السبب الذى من أجله غرس فى الانسان خشية الموت والفزع منه ، وإلا لخلت الدنيا من أهلها فى لمحة عين .

كان الانتقال سهلا بسيطاً .. هيناً ليناً .. فقد انتقلت إلى الدّار الأخرى .. خفيفاً لطيفاً ... بلا « دواليب ، ولا كراكيب » .. ولا « عفش » ، ولا أثاث ، ولا « شنط » قد كدست فيها الملابس حتى أصبحت مفرطحة منبعجة .

نعم رحلت بمفردى لا شىء يثقل كاهلى أو يقض ظهرى .. رحلت وأنا أتذكر فى طريقى قول عمر الخيام :

عجباً للروح - إن كان يطيق
نَضْوَ سِرْبال من الطين صفيق
وسموّا لمدى النجم السحيق
ماله - تباً له - قد لَزِما
سجنه السفلى مذموم اللزام

لقد أحسست أنى قد نضوت سربالى الصفيق. وفررت من سجنى السفلى ... وأننى قد أخذت فى السمو شاعراً بخفة عجيبة .. حراً طليقاً لا يقيدنى قيد ولا يشدنى وثاق .. روحاً خفيفة بلا جسد يثقلها تسرى كالنسيم وتنفذ خلال كل شىء .. بلا حاجة إلى مطية .. أو مرتقى .

انتقلت إلى الدار الآخرة تاركا الجسد لأصحاب الأجساد يولولون حوله وينوحون .. ما بين مدع فى حزنه وصادق فيه .. وإن كان كلاهما سيستويان بمرور الزمن وكرّ الأيام .

* * *

ولم أنتظر كثيراً خارج الباب .. فسرعان ما أقبل

obeikandl.com

الرجل الذى بيده كشف الأسماء ، وقد سار خلفه رجل وقور ، مهيب الطلعة .. واقترب الاثنان منى وقد بدا عليهما القلق .. وعرّفنى أولهما بالثانى قائلا فى احترام شديد :

— سيدنا عزرائيل .

وأحنيت رأسى ومددت يدى مصافحاً وقلت :

— تشرفنا يا افندم .

ولم أستطع أن أمنع رجفة سَرَت فى نفسى ورعدة سَرَت إلى بدنى عندما نطق الرجل باسم عزرائيل ... رغم أنى كنت متأكداً أن الرجل لم يعد له سلطان علىّ بعد أن أصبحت فى حالة وفاة ، وماذا أخشى منه ... والمثل يقول « ماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها » أو « ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه » .

وتمالكت نفسى وتصنّعت الثبات .. وتساءلت فى قلة اكتراث :

— « إيه الحكايه ؟؟ »

وهز عزرائيل رأسه فى أسف ودهشة ، وأجاب مطرقاً رأسه إلى الأرض :

— الظاهر قد حدث التباس فى الأمر ... لقد أخطأوا فى المجىء بك إلى هنا .. فلست أنت المقصود، بل المقصود هو صاحب الاسم الذى فى الكشف ... حقيقة أن الاسمين متشابهان، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون عذراً لارتكاب مثل هذا الخطأ ... فهو خطأ مخجل شنيع ... بل هو الأول من نوعه .. فقد يحدث أن نتأخر قليلا فى إحضار شخص ... أما أن نحضر شخصاً سواه، فأمر لا يتصوّره عقل .

وساد الصمت برهة .. ورأيت عزرائيل قد امتلأت نفسه بالاكتئاب والحيرة .. فشعرت بعطف عليه وأحزنني حزنه .. فأردت أن أهوّن الأمر عليه ، فقلت له :

— هوّن عليك .. فالمسألة بسيطة ، وجل من لا يسهو . فأنا على استعداد « للصهينة » والدخول معك فى الدار الآخرة ... ما دمت سأدخلها إن عاجلا أو آجلا ... والواقع أنها تبدو لى أحسن من الدار الأولى كثيراً أما الشخص الآخر فهو طبعاً لا يدرى من الأمر شيئاً وإن درى فلا شك أنه سيحمد الله على هذا الخطأ .

وانتظرت بعد ذلك . . . أن يهجم علىّ عزرائيل ، فيحتضننى بشدة . . ويقبلنى بلهفة . . . شاكراً إياى على هذه الشهامة والأريحية اللتين أبديتهما متطوعاً لإنقاذه من ورطته . . فى الوقت الذى كان فى إمكانى فيه أن أفضحه بين الملائكة . . وأطالبه بتعويض على إقلاقى وإزعاجى . . ونقلى إلى الدار الآخرة . . بلا مبرر ولا موجب . . .

ولكن عزرائيل هز رأسه فى أسف وقال :

ـــ ليس هذا الحل بالذى يمكن قبوله فى هذا الدار ، هنا لا يمكن « الصهينة » على الخطأ . . قد يكون هذا شيئاً اعتدتم عمله فى الدار الأولى . . أما هنا . . فلا . .

ونظرت إليه من أسفل إلى أعلى . . . وندمت على محاولتى صنع المعروف فى غير أهله . . وساءنى منه أن يسب أهل الدنيا فى الوقت الذى يحاول فيه أحدهم ـــ وهو أنا ـــ أن ينقذه من الخطأ الذى وقع فيه . . وسألته فى تبرم :

obeikandl.com

— إذن فما الذى تنوى فعله ؟

ولم يجبنى بكلمة ... بل قادنى من يدى برفق ...

وانتحى بى جانباً ، وهمس فى أذنى بصوت رفيق :

— ليس أمامى إلا إعادتك بسرعة إلى الدار الأولى ، وإحضار الرجل الآخر قبل أن يكتشف أحد هنا ما حدث من خطأ .. وكل ما أطلبه منك من معروف هو أن تختبىء هنا فى سكون ودون ضوضاء .. حتى أعود إليك بعد لحظة فأذهب بك إلى حيث كنت .

وكان صوته مليئاً بالرجاء ، ونظراته تستثير العطف حتى لم يسعنى إلا أن ألبّى رجاءه وأعده بما يطلب ... وإن كان الشيطان قد بدأ يوسوس لى ويحضّنى على ألا أرضخ ولا أمتثل ...

أى أبله أنا حتى أدع الفرصة تذهب من يدى .. عزرائيل .. ذلك الجبار الذى ترتجف من ذكره الأفئدة وتهلع من اسمه النفوس .. يقع فى يدى .. فأتركه يفر بهذه السهولة .. واعفو عنه بهذه البساطة .. ألم يكن من الأفضل أن أنتهز الفرصة فأضج بالصياح

obeikandl.com

وأفضحه بين أهل السماء .. أو على الأقل أساومه فى مطلبه .. وأطلب منه أجراً نظيره .

وأحسست بالكبرياء تملأ نفسى .. ولم أشعر أنى أتمنى شيئاً قدر أن يرانى أهل الأرض فى هذا الموقف .. وعزرائيل المخيف الذى لا يرحم .. يرجونى العودة إلى الحياة .. وأنا أتأبّى وأتمنع .

وعاد عزرائيل سريعاً بعد فترة قصيرة ، وقد تلفع بعباءة سوداء .. ثم تأبط ذراعى .. دون كلفة كأننا أصدقاء من قديم الأزل .. وقال لى : هيا .. بنا ...

obeikandl.com

الفصل الثانى

فى الطريق

وسرينا فى الهواء . . هابطين إلى السحب . . وأخذت أتأمل السيد عزرائيل من طرف عينى . . وأسترق إليه النظر لأفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . . فوجدته مخلوقاً جميلا . . مهيب القامة ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح . . ليس به ما ينفر أو يخيف . . ولا فيه ما يثير الرعب أو يملأ النفوس ذعراً . . أجل . . لم يكن به أى شبه من تلك الصورة التى انطبعت فى نفسى من الرسوم التى حاول الإنسان أن يصوره بها . . . حتى لقد بدأ الشك يملأ نفسى . . . إن صاحبى ليس بعزرائيل ، وأنه قد يكون أحد صبيانه ممن ارتكبوا الخطأ فى إحضارى إلى الدار الآخرة وقد ادعى أنه عزرائيل لكى يخيفنى ويعيدنى إلى الحياة قبل أن يعلم عزرائيل بالخطأ فينزل به عقاباً صارماً .

obeikandl.com

وأحس صاحبي أني أمعن البصر فيه ، فالتفت إليّ متسائلا عما يسترعي نظري .. وخشيت أن أوله بتلك الهواجس التي خالجت نفسي ، وأن أثير سخريته بتلك الصورة التي كنت أتخيله بها .. وأصابني الارتباك ، ورأيتني أقول له دون كثير روية ولا تفكير :

— أين المنجل ؟

— المنجل !! ماذا تقصد ؟

وازداد ارتباكي وقلت متلعثما :

— المنجل !! .. المنجل الذي تحش به الأرواح !!

وهنا رأيت عزرائيل ينفجر ضاحكا ... وعلت قهقهته تصم الآذان كأنها دوى الرعد أو قصف المدافع .. وانتابني خليط من الدهشة والانزعاج وعجبت في نفسي مما أضحك ذلك الذي ظننت به وقاراً وتؤدة .. ومما قلبه إلى قرد ماجن على وشك أن يغمى عليه من فرط الضحك .. وانتظرت حتى تمالك أنفاسه .. وأجابني بخبث :

— من أوهمك أن الأرواح عبارة عن « جرجير » أو « بقدونس » حتى تخيلتنا .. نحشها بالمناجل .

obeikandi.com

ونظرت إليه فى دهشة وقلت متسائلا :

— إذاً فكيف تحشونها .

— أما زلت مصراً على أنها « تحش » ...

— إذاً فكيف تأخذونها ؟

— المسألة غاية فى البساطة .. فيكفى أن أشير بأصبعى إلى الروح لكى تترك جسدها وتتبعنى صاغرة راضية.

وهززت رأسى فى دهشة وقلت :

— شىء عجيب ! !

— ولِمَ العجب ؟ ! وماذا يثير دهشتك !

— يثير دهشتى ذلك التناقض العجيب بين حقيقة الموت .. وبين ما يتصوره الانسان فيه ... أتدرى أن أكبر كارثة يمكن أن يبتلى بها المرء فى حياته هى الموت .. أتدرى أن الانسان مهما بلغ من تبرمه بالحياة وكرهه لها .. نجده يتعلق بأهدابها ويخشى الموت — رغماً عن تأكده أنه سيضع حداً لضيقه وبؤسه — لا لشىء إلا لفرط ما يتخيله فى الموت من بشاعة ...

لقد قال الانسان :

« تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد ».

أتدرى لِمَ هذه الرغبة فى الازدياد .. لأن الموت يفزعه ويروعه ... فهو يرى أن الحياة مهما ساءت خير من الموت .. وهو يرى أن ما يعلمه خير مما يجهله ...

أتدرى أى صورة يرسمها الانسان لك فى رأسه يا سيد عزرائيل ... لا تسخر منى ولا تضحك ... ولا تتهم الانسان بالسخف .. واعذره إن كان قد أخطأ فإنه لم يرك ...

إنه يتخيلك (يا سيدى) هيكلا قد أكل البلى جسده فلم يبق منه إلا حطاماً بالية وعظاماً نخرة ... يروعك منه جمجمته ذات العينين الغائرتين كأنهما حفرتان مظلمتان .. وأنفه المتآكل .. وعظام وجهه البارزة .. وفمه الشبيه بالكهف الخرب .. وقد اتشح بملاءة بيضاء وأمسك بعظام كفه منجلا كبيراً .. ولفته ظلمة حالكة شديدة السواد .

هذا هو عزرائيل المخيف يثير الذعر فى النفوس

ويبعث الهلع فى القلوب .. أترى هناك شبهاً بينك وبين هذه الصورة التى أوحى الإنسان بها كرهه للموت وخوفه منه .

إن الانسان يا سيد عزرائيل الجميل .. واعذرنى فى هذا اللقب لأنى أراك تستحقه .. وأراه يكفر عن تلك السيئة التى لحقتك منه بتصوره إياك على تلك الصورة البشعة .

أقول إن الانسان يستطيع أن يعتاد كل مكروه فى حياته .. إلا الموت . فهو لا يعترف بأن الموت حق وهو لا يوطن نفسه عليه .. ولا ينتظره كحادث لا بد من حدوثه .. بل هو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً . أما كونه يموت غداً .. فذلك ما لا يستطيع تصوره .. هو يفرض فى نفسه الخلود .. ولا يكاد يسمع أن فلاناً قد مات حتى يضرب صدره بيده .. ويحملق بعينيه ويصيح قائلا « يا ساتر يا رب .. لقد قابلنى بالأمس فقط وكان صحيحاً سليما .. » .. كأنه لا فض فوه .. كان على يقين أن الموت لا يقرب الأصحاء .. أو كأنه

قد تخيل أن مقابلة الرجل له بالأمس تمنعه من أن يموت اليوم . . . أو كان يظن أن صاحبه هو الأول من نوعه الذى يموت بمثل هذه الكيفية . . .

ويسمع آخر أن فلاناً قد مات . . فيصيح قائلا : « يا شيخ ! ! لقد كان رجلا طيباً . . . إن له أولاداً محتاجين إليه » . . . ويبدى منتهى الدهشة رغم كونه قد سمع من قبل بمائة رجل كصاحبه قد ماتوا رغم طيبتهم ورغم أن عندهم أولاداً محتاجين إليهم . . ولكنه . . . الموت . . . الذى لا يستطيع الانسان إلا الاندهاش له .

نعم ، يا سيدى ، هو يأبى إلا أن يفاجأ بالموت . . . رغم كونه يعرف أن كل إنسان معرّض له فى كل لحظة وفى كل ظرف . . . ورغم كونه يعرف أن الموت ليس له قواعد ولا قيود . . فهو يصيب الطيب والخبيث والمريض والسليم . . والطفل والصبى والشاب والعجوز . . والذى يستحق الموت ، والذى لا يستحقه ، ورغم كونه يعرف خطأ القائل :

والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

obeikandl.com

فالموت لم يكن بنقاد قط .. فهو يختار الجياد وغير الجياد .

أجل .. لقد عودنا الموت أن يكون طائشاً أحمق .. فهو زائر لا ميعاد له يزورنا بسبب وبلا سبب . وعرفنا عنه ذلك ... وبالرغم من كل هذا ... فما زارنا مرة إلا وأدهشنا كل الدهشة .. وروعنا وأفزعنا وفاجأتنا رؤيته كأننا لم نسمع به من قبل ... وكأننا كنا على ثقة من أن الذى أصيب به كان من المخلدين . ولم يكن إنساناً فانياً معرضاً للموت فى كل لحظة كغيره من البشر .

ولكنه الموت ، ياسيدى !! . الموت الذى لم يستطع الانسان — من فرط ما يتخيله من بشاعته — أن يروض نفسه عليه ... وأن يفهمه على أنه حقيقة من الحقائق السهلة البسيطة ... وهذا هو أكثر ما يشقيه فى الحياة ... فهو دائم القلق والخوف .

ترى ما الحكمة فى هذا ياسيدى ... لم يخدع الانسان فى الموت فلا يفهمه على حقيقته .. لم لا يعرف

أنه عملية هينة لينة ... وأنه انطلاق من سجن الحياة وتحرر من قيود الجسد ... لم لا يدرك مبلغ ما فيه من حلاوة ومتعة فلا يعود يفزع منه ويجزع ... ولا يعود يلطم الخدود ويشق الثياب ويملأ الدنيا صياحاً وعويلا .. كلما زار له الموت قريباً أو حبيباً ... لِمَ لا يدرك أن الموت ليس من البشاعة بحيث يستحق منه هذا البغض وهذا النفور .. لِمَ لا يدرك أن ...

ورأيت عزرائيل يتوقف .. وشملني بنظرة فاحصة واستغرق في تفكير عميق .. وسمعته يهمس كأنه يخاطب نفسه :

— لقد أصبحت مخلوقاً خطراً ... وإني لأرى من الجنون أن أحاول إعادتك إلى الحياة بعد أن جرّبت الموت وفهمت حقيقته ... ترى ماذا سينتهي الأمر بنا إذا تركتك تعود فتندس بين الناس وتنفث فيهم تلك الأفكار التي سردتها لي الآن ... لا .. لا ... من الحمق أن أعيدك إليهم ...

وبدا عليه القلق وتملكته الحيرة ... ورأيته يمد يده فيحك بها رأسه ، ويستمر في القول :

— ولكن ماذا أفعل بك وأنا لا أستطيع أن أعيدك إلى الآخرة لأن دورك لم يأت بعد . . أأتركك هكذا معلقاً بين الحياة والموت ؟ . . ولكن من يضمن لى أنك ستستقر فى سكون دون أن تحاول الصعود إلى الآخرة أو الهبوط إلى الدنيا . . فتكون لى سبباً فى فضيحة كبرى .

ولم أحاول أنا أن أقول شيئاً أو أعد بشىء . . . لأنى لم أتصور قط كيف تكون الحياة بين الدنيا والآخرة . . . وهل يمكننى الاستقرار فيها دون أن يصيبنى الملل والسآمة . . وأنا وحيد لا يؤنس وحشتى إنس ولا جان .

وخطر لى خاطر عجيب ! ! . لو أمكن للسيد عزرائيل أن يحضر لى بعضاً من حوريات السماء . . أو على الأقل بعضاً من حوريات الأرض . . . فقد يكون فى استطاعتى أن أمكث كما يريدنى معلقاً بين السماء والأرض دون أن أخشى الملل . . . ودون أن أحاول إزعاجه أو فضحه حتى يحين دورى للصعود إلى السماء .

وراقت لى الفكرة . . . وطربت لها . . . وتخيلت

نفسى أول مخلوق يعيش بين السماء والأرض ... وبين الدنيا والآخرة ... تحوطنى الحور العين .. الفاتنات الساحرات ... يسهرن على خدمتى .. كأننى هرون الرشيد .. بل خير منه مائة مرة .. إذ لا وجه هناك للمقارنة بينى وبينه ... فسيكون عزرائيل فى خدمتى وطوع أمرى ... إذ يكفى أن أشعره بأنى قد أصابنى الملل ... وأهدده بالنزول أو الصعود ... حتى يرجف فزعاً ويحضر لى كل ما أريد ...

وتملكتنى النشوة ... وصممت أن أعرض الفكرة على عزرائيل ... ولكننى تصنّعت « التّعقل » .. حتى لا يظن بى لهفة فيتدلل .. وحتى يعلم أن المسألة كلها ليست إلا محاولة لإنقاذه .

قلت فى قلة اكتراث :

— الواقع أنها مشكلة ... فلا أظن أن الاستقرار بين السماء والأرض بالشىء المحتمل ... اللهم إلا فى حالة واحدة .

وسألنى عزرائيل بلهفة :

obeikandl.com

ـ كيف ؟

ـ نعم .. قد يكون البقاء محتملا . . إذا كان هناك بعض المرغبات . . والمسليات التى يقتل بها المرء وقته . . ويصرف بها ذلك الملل الذى يصيبه .

ـ مرغبات . . . ومسليات ؟ ! !

وأشرت برأسى ببساطة وقلة اهتمام قائلا :

ـ أجل .

ـ ولكن أى نوع من المرغبات والمسليات ؟

ـ شىء بسيط . . . بضع حوريات . . . من السماء أو الأرض .

وبدت الدهشة على وجهه وقال بصوت خفيض كأنه يخاطب نفسه :

ـ بضع حوريات . . . يلزمهن بضع كؤوس من الخمر وأدوات طرب ورقص .

ثم رفع صوته وهز رأسه هزّات متوالية علامة الاستنكار . . وأردف قائلا :

ـ كلا . . كلا يا سيدى . . ستكون فضيحة بين

obeikandi.com

السماء والأرض .. ثم إنى أيضاً لم أتعود هذه العملية بعد ... وليس لدى أى استعداد لأن أقوم بتوريد الحوريات لا لك ولا لغيرك .

وصمت لحظة ، ثم استمر فى الحديث :

— ومن يضمن لى أنك ستكون قانعاً بعد كل هذا .. وأن الملل لن يتطرق إليك .. ومن يضمن لى أنك لن تسأم تلك الحوريات فتطلب غيرهن ... وغيرهن ... لا .. لا ياسيدى . الله بينى وبينك .. هيا بنا إلى الأرض وليحدث بعد ذلك ما يحدث .

وأصابتنى خيبة أمل شديدة .. ولكنى كتمتها فى نفسى ولم أدع مظاهرها تبدو على وجهى حتى لا يظننى متهافتاً على البقاء .. وقلت له فى غير اكتراث :

— هيا .

وعاودنا الهبوط ورأيته يلتفت إلىّ بعد لحظة ويقول :

— على أية حال .. أنصحك ألا تحاول أن تنشر حقيقة الموت بين الناس فإن فى جزعهم منه ورهبتهم إياه حكمة بالغة ... فهو يحد من طغيانهم .. ويخفف من

شرورهم وآثامهم ... ففى خشيته رادع لهم وزاجر ... فأنت ترى أولئك الذين قد اقترب منهم الموت ... وباتوا يحسون قربه ... قد طهرت نفوسهم .. وأصبحوا أقرب إلى الخير وأميل إلى فعل الحسنة من ارتكاب السيئة لا لشيء إلا لفزعهم من شبح الموت .

ثم إن هناك حكمة أخرى لذلك الوهم الذى يتوهمه الانسان فى الموت ... وهى الرغبة فى المحافظة على كيان دنياكم ... ولتتخيل معى أن الناس كلهم يرون الموت على حقيقته كما رأيته أنت ... وأنهم قد أدركوا ما فيه من سهولة وبساطة .. ترى ما الذى يبقيهم لحظة على قيد الحياة ؟ .. ما الذى يحملهم على البقاء فيها واحتمال سيئاتها منغصاتها ... هذا الانسان الذى طبع على الشر والسوء، والذى لا يزال — رغم ما يتخيله من بشاعة الموت — يشعل نيران الحروب ... يلقى بنفسه فى أتونها .. والذى يحاول أن يدمر الدنيا بدافع أنانيته وجشعه ... ماذا تراه يفعل لو أدرك أن الموت ليس بمفزع ولا مخيف ... ماذا تراه يفعل إذا

كان رغم رهبته من الموت قد ضحى بابنه وبأخيه وبكل عزيز لديه بلا أقل سبب ...

يا صاحبي لو أدرك الناس الحقيقة لخلت الدنيا من أهلها فى لمحة عين .

وصمت عزرائيل .. ورأيت فى حديثه قولا صادقاً وحكمة بالغة . ولكنى لم أرد أن أظهر له بمظهر المقتنع حتى لا يظن أن المسألة قد انتهت عند هذا الحد . . . فسألته فى تهكم ظاهر:

— ولِمَ هذا الحرص على بقاء الدنيا .؟ وما الضرر فى أن تخلو من أهلها فى لمحة عين . . . إنى لأرى فى ذلك راحة للانسان من عناء الحياة . . وراحة لكم من عناء العمل . . . اللهم إلا إذا كان الغرض من بقاء الدنيا هو إيجاد عمل لكم . . . كما هو الحال فى بعض المصالح الحكومية . . . لأننى فى الواقع لا أكاد أرى أى فائدة فى هذه الدنيا . . . لأننا إذا حاولنا تفسيرها أبسط التفسير ، وجدناها لن تزيد على كونها : إما متعة للإنسان تعقبها حسرة وجحيم يصلى سعيره فى الآخرة ، وإما حسرة وزهد يعقبهما متعة فى الجنة . وفى كلا الحالين

سيصاب الإنسان بالحسرة إن آجلا أو عاجلا .. وإنا لنراه فى معظم الأحيان ... يفضل المتعة العاجلة ... ويرى أن عصفوراً فى الدنيا خيراً من عشرة فى الآخرة.

أترى تفسيراً للدنيا غير ذلك ... أو لا ترى معى أن المظلوم الوحيد فيها هو الإنسان ... الذى يلوح أمامه باللذات والمتع ... وتدفع فى نفسه الرغبة فيها.. ثم يطلب إليه الكف عنها والزهد فيها .. ما الحكمة يا سيدى ، فى أن نلوح له بامرأة عارية الجسد ، غضة بضة ، مكتنزة الثديين ، ممتلئة الأرداف ... ونملأ نفسه بالرغبة فيها .. فإذا همّ بها .. دفعناه جانباً وقلنا له : حرام ... لا تقر بها .. ابتعد عنها .. وسنعطيك عنها عوضاً حوريات فى الآخرة .. وما الحكمة فى أن نحرم عليه الخمر فى الدنيا لنعطيه منها أنهاراً من الآخرة .. لا .. يا سيدى .. إنى لا أرى معنى لهذا الحرمان ... فإما أن ندعه يتمتع بما فى الدنيا .. بلا وعيد ، ولا تهديد ، ولا نهر ، ولا زجر .. وإما أن نعطيه فى الآخرة مرة واحدة .. دون أن نعرضه لهذه التجربة القاسية ... والاختبار

المر . . . فإننا لسنا بحاجة إلى اختباره لأننا أدرى به .

خبرنى ، يا سيدى ، ما الذى يحزنك من أن تخلو الدنيا من أهلها فى لحة عين .. أيسيئك أن تحال إلى المعاش كغيرك من كبار الموظفين فى الدنيا ؟

وصمت .. وانتظرت أن يبين لى عزرائيل الحكمة فى بقاء الدنيا .. والسبب فى خوفه من أن تخلو من أهلها كما يقول فى لحة عين . . . ولكننى وجدته قد وقف فجأة وتسمر فى مكانه . . وحملق فىّ بعين تائهة وذهن شارد . . وضرب جبينه بكفه . . كأنه قد تذكّر شيئاً هاماً وصاح قائلا :

— يالله . . . لقد كدت أنسى .

ونظرت إليه فى انزعاج ودهشة . . ترى ما هذا الذى كاد ينساه . . لا بد أنه أمر غاية فى الخطورة . . فقد بدا عليه من فرط الحيرة والذهول ما جعلنى أتوجس خيفة . . . وأردف عزرائيل فى صوت خافت :

— لقد كدت أنسى الموعد .

ثم التفت إلىّ وقد ارتسمت على وجهه أبلغ آيات السخط والتبرم . . كأننى حمل قد أثقل كاهله وأنقض ظهره . . وقال :

— لم أر من البشر ما سبب لى من الانزعاج والارتباك مثل ما سببت لى ... فكل ما وراءك معقد مربك .. لقد أفسدت علىّ يومى .. وأنسيتنى مواعيدى .

وشعرت بالغضب يتملكنى .. فقد اتهمنى بما كان أولى أن يتهم به نفسه ... ولكن الذنب ذنبى فقد لبثت معه رقيقاً مهذباً وحاولت أن أثبت له أن الإنسان دائماً « جنتلمان » ... ولكن الظاهر أنه لم تجد معه تلك الطريقة فما كان يجب أن أكون معه بمثل هذه السهولة ... على أية حال نحن ما زلنا فى الموضوع ... وما زال فى استطاعتى أن أريه العين الحمراء، والتفت إليه وشملته بنظرة ازدراء من أسفل إلى أعلى وصرخت فيه بأعلى صوت :

— أنا الذى سببت لك الانزعاج والارتباك ... تأخذنى من الحياة دون وجه حق ... وتسبب لى كل ما سببت من التعب والاضطراب ... وتصيب أهلى بكل ما أصبتهم به من أحزان وأشجان .. وتبح أصواتهم من فرط « الصوات » دون أى سبب ... وتغرمنا ثمن النعش والكفن وأجرة « الحانوتى والفراش والتربى » ...

ثم تتهمنى بعد ذلك بأننى قد سببت لك الارتباك !!
أيمكن أن أصيبك بارتباك أكثر مما أنت مصاب به فعلا ... هذا « التلطيش » فى أرواح العباد ... وهذا الفساد فى العمل ... أيوجد ارتباك أكثر من هذا ... من الذى أفسد على الآخر يومه وأنساه مواعيده ..
ألا تدرى أنه لولا ذلك الخطأ منك ... لكنت الآن جالساً بجوار تلك الحسناء التى وعدتها باللقاء لأول مرة ... قارن يا سيدى بين وقفتى هذه معلقاً بين السماء والأرض ... وقد أخذت أتجادل مع « عزرائيل » والعياذ بالله ... وبين جلستى بجوار ذلك الجسد الدافىء ... والشفاه الملتهبة ... أغلب ظنى أنها قد جلست تنتظرنى الآن وقد أصابها الضيق والقلق لغيابى .

وصمت لحظة ... ولما همّ بالحديث صرخت فى وجهه آمراً :

ـــ أعدنى سريعاً إلى الأرض ... فإنى لا أود أن أنتظر أكثر من ذلك ...

الفصل الثالث

عزرائيل العاشق

بهت عزرائيل وعلا الاصفرار وجهه .. لقد أصابت حملتي عليه نجاحاً عظيما . . فانفثأ غضبه وانقلب خضوعاً وخشوعاً.

وبدأ يقول بلهجة المتوسل :

— رويدك ياسيدى رويدك .. إننى ما قصدت أن أثيرك أو أغضبك ... إنى فى الواقع مرتبك فعلا . . فاعذرنى إن بدا منى بعض السخط والتبرم . . إن لدى موعداً هاماً ... ولا أدرى ماذا أفعل الآن .

— أى موعد هذا الذى لديك ... مجلس إدارة؟

وهز عزرائيل رأسه علامة النفى ... ورأيت منظره يبعث على العطف . . فندمت على ذلك الاندفاع منى فى تقريعه وتأنيبه ، وحاولت أن أخفف من ضيقه ، فقلت له هازلا :

— لعله إذاً موعد غرام !!

ولشدة دهشتى رأيته قد أطرق برأسه علامة الموافقة .

وهنا لم أستطع أن أمنع عاصفة من الضحك انطلقت من صدرى ... يا للعجب . . عزرائيل عاشق ... وعلى موعد غرام !!

ونظرت إلى عزرائيل فإذا به غريق فى بحر من الخجل ... أغلب ظنى أن مبعثه كان حداثة عهده بالحب . . فلقد كان عاشقاً مستجداً ... وأردت أن أروّح عنه . . فقلت فى بساطة :

— وعلام الخجل وكلنا عشاق ... ترى من تكون المعشوقة السعيدة ؟

ورفع إلىّ عزرائيل عينين يلمع فيها بريق الحب :

— حورية ما رأيت أفتن منها ولا أجمل ...

وهممت بالضحك . . فقد أطربنى منظر عزرائيل العاشق ... ولكننى كتمت ضحكتى خشية أن يظن فيها سخرية منه ... ومع ذلك فقد استطاع أن يلمح ضحكتى فى أسارير وجهى . . فقال :

— يبدو لى أنه قد أدهشك أن أكون عاشقاً .

obeikandl.com

— أقول لك الحق .. إنه قد أدهشنى فعلا .

— ولِمَ ؟

وترددت برهة فلم أدر بماذا أجيبه ... ولكنى رأيت فى عينيه إصرار على الإجابة .. فقلت :

— قد يكون مبعث الدهشة .. هو ما أتخيله من بشاعة عملك وقسوته ... وتنافره مع لين الحب ورقته ... فأغلب ظنى أن العاشق .. لا يمكن أن يكون قبّاض أرواح ... وقبّاض الأرواح لا يمكن أن يكون عاشقاً .

— لا ياسيدى ... لشد ما أخطأت فى ظنك .. ليست هناك صلة بين العمل والحب .. الحب شىء لا بد منه لكل كائن حىّ ... إنه كالهواء الذى نتنفسه ... ولا بد من الحب ما دامت الحياة ... وليس فى هذا الكون من لا يشعر بالحب ولا يحتاج له ، إلا الجماد ... فالكائنات الحية لا بد لها من التوالد والتكاثر ، وإلا انقرضت فلم تصبح حية .. والتكاثر لا بد له — فى أغلب الأحيان — من جنسين ...

ولا بد لحدوث التكاثر من تقارب بين الجنسين ...
ولا بد للتقارب من جاذبية تدفع أحدهما إلى الآخر..
هذه الجاذبية... هى ما يسمونه: الحب ... وهذا هو تفسير الحب فى دنياكم .. أما عندنا فيخيّل لى أن الكائنات أشبه بالأقطاب المغناطيسية ، لا يكاد القطب السالب يقترب من القطب الموجب حتى يندفع كل منهما تجاه الآخر.. أجل.. ما من روح إلا ولها إلفها الذى تأنس به وتحس الراحة فى جواره .

وصمت عزرائيل لحظة ، ثم تنهد قائلا :

— آه ياسيدى لو رأيت قطبي الآخر... إن جاذبيته لا تقاوم ، حتى لقد أحسست بنفسى أندفع إليه اندفاعاً عنيفاً .. كأنى قنبلة صاروخية .

يا لعزرائيل العاشق الولهان .... لقد أحسست ما به من فرط الوله والصبابة ، وبدأت ألتمس له العذر فى ذلك الضيق والتبرم الذى أصابه عند ما تذكّر الموعد . وشعرت أنى عبء يثقل كاهله ... وحمل ينقض ظهره ، وعزمت على ألا أكون عقبة فى سبيله بأية

حال .. أجل ، ما كنت بالذى يقف فى سبيل العشاق .. وأنا مدمن العشق .. محترف الهوى .

ونظرت إلى عزرائيل وقلت بلهجة مليئة بالعطف عليه . . وتقدير إحساسه :

ـــ اسمع يا سيدى . . خفف عن نفسك . . ولا تضق بى هماً ... يمكنك الذهاب إلى موعدك دون أن تخشى شيئاً . . . سأفعل كل ما تطلبه منى . . . سأنتظر كما تشاء . . بين السماء والأرض . . أو حتى بين زبانية الجحيم . . . أين موعدك ؟

ـــ فى الجنة !

ـــ إذن لقد هان الأمر ... هيا بنا . . . تدخل أنت إلى صاحبتك ... وتتركنى خارج الأسوار أتسلى بمشاهدتها . . .

ثم أردفت ضاحكا :

ـــ بشرط أن تذكرنى بالخير عند صاحبتك وعند أهل الجنة . . . فقد أحتاج إلى شفاعتهم يوماً ما للدخول إلى الجنة . إن كانت تجدى الشفاعة .

obeikandl.com

ووضعت يدى فى يده وهممت بالعودة به .. وقد تملكتنى النشوة وملأنى الفرح . . . فلقد كنت على وشك أن أصيب عدة عصافير بحجر واحد . . . فأولها : هذه الخدمة الجليلة الذى سأؤديها لعزرائيل الولهان . . والتى لا أظنه سينساها لى أبد الدهر . . . ومن يدرى . . ربما أحتاج إليه مستقبلا كما احتاج إلىّ الآن . . وما أظنه بناكر للجميل . . . وثانيها : أنى سأتمتع بمشاهدة الجنة . . ولو من خارج الأسوار . . . وهى فرصة قد لا تسنح بعد ذلك قط . . . فقد يكون مصيرى الجحيم . . وما أظنهم يسمحون لأهله بمشاهدة الجنة . . ولا حتى من خارج الأسوار . . . وثالثها : وهو أمل كان يراود نفسى . . . هو أن تسنح لى فرصة فأبصر إحدى الحوريات تطل من شرفة أو نافذة . . . وقد أنجح فى مغازلتها فتنزل إلىّ أو أصعد إليها . . أو من يدرى قد يرانى السيد رضوان الهمام حارس الجنة ، فيدعونى إلى تناول فنجان من القهوة ، أو كأس من الخمر التى تفيض بها أنهارهم . وقد يكون أكثر كرماً فيسمح لى بجولة فى أرجائها . .

obeikandi.com

أجل ، ما من شك فى أنى سأفيد من عودتى مع عزرائيل .. فحتى لو فشلت فى الحصول على شىء مما ذكرت .. فلن أعدم حجراً خارج الأسوار أقذف به أشجار النخيل والأعناب فأصيب شيئاً من الثمر والعنب ، ولا أظن أن السيد رضوان سيكون من « الهيافة » بحيث يعدو ورائى كبقية البوّابين .. فما أظن النخيل والأعناب ذات قيمة لديهم .

وجذبت عزرائيل من يده .. ولكنه لم يتحرك .. لقد ظل متسمراً فى مكانه .. ولم يذهب من وجهه ذلك الضيق والحزن ... يا لله .. ماذا يريد منى أن أفعل له أكثر من ذلك .. لعله يريد أن أحضرها له حيث هو . وقلت له فى دهشة :

— ما بك ..؟ لقد قلت لك إنى سأفعل ما تريد .

— المسألة أعوص من هذا .. إنى أقدّر لك جميل صنيعك .. ولكن لدى أعمالا لم أنجزها بعد .. وكان المفروض أن أنجزها فى ذلك الوقت الذى أضعته معك وقد أزف الموعد .. ولا أدرى ماذا أفعل .. أأنجز

obeikandl.com

العمل وأترك الموعد . . أم أذهب إلى الموعد وأترك العمل!؟

وأطرقت برأسي مفكراً ؟ ثم قلت بعد هنيهة :

— هل يمكنني أن أقوم عنك بإنجاز هذه الأعمال ؟

وهز رأسه عدة مرات علامة النفي . . فقلت :

— على أية حال أخبرني ما هي تلك الأعمال . . فمن يدري ربما استطعت انجازها لك ؟ . . « وقد يضع سرّه في أضعف خلقه » .

— بضع أرواح أريد أن أقبضها . . .

— « يا ساتر يارب » !!

وتراجعت إلى الخلف في وجل وارتياع . . وأردفت صائحاً :

— لا يا سيدي . . لا . . الله بيني وبينك . . هذا عمل لا أجيده ولا أحذقه . . وليست عندي أي رغبة ولا استعداد للقيام به . . حاشا لله أن أكون قبّاض أرواح . . إنني لا يفزعني شيء كرؤية الموتى . . ولا أكره في حياتي شيئاً كما أكره عملية القتل .

ونظر إليّ عزرائيل بدهشة وقال :

obeikandl.com

— قتل ! ؟ .. وما دخل القتل فى موضوعنا ..
إن المسألة أبسط كثيراً مما تتصور ..

وصمت لحظة ثم أردف بصوت يفيض باليأس والحزن:

— على أية حال .. أنا لا أستطيع أن أكلفك القيام بواجباتى، ويكفينى منك ذلك العطف الذى أبديته نحوى .. وإنى لأشعر أنى لا أستطيع أن أوفيك حقك من التقدير والشكر .

وأطرق عزرائيل برأسه وساد بيننا صمت عميق .. وشعرت باللوعة والأسى. ووددت لو استطعت أن أفعل له شيئاً .. أى شىء ... وتمنيت لو أمكننى أن أنجز له أعماله .. وأن أقوم عنه بقبض تلك الأرواح التى يرغب فى قبضها .. ولكنى كنت أحس أن « العين بصيره واليد قصيره » .. وكنت أدرك أن المسألة لا يمكن أن تكون من السهولة بحيث أعد بانجازها ببساطة .. فان المسألة قبض أرواح .. لا قبض نقود ... وقد ترفض الأرواح أن تصعد معى .. وقد تفرّ منى فى الطريق وتعود إلى أجسادها ... بل قد لا أستطيع معرفة

أصحاب الأرواح التى أنوى قبضها .. وقد يروغون منى أو ينكرهم أهلوهم .. وإذا كان عزرائيل نفسه قد أخطأ فى إحضارى .. أأكون أنا معصوماً من الخطأ .. وأكثر من هذا من يدرى أننى بعد أن أقبض الروح وأسمع بكاء أقاربها وأصحابها .. لا يتملكنى التأثر فأعيدها إليهم مرة أخرى .. لا .. إن العملية لن تكون سهلة بحال من الأحوال .

ونظرت إليه ، وقلت له فى رقة وأدب :

— بودى لو استطعت أن أقوم عنك بإنجاز أعمالك .. ولكنى أحس فى نفسى عجزاً وقصوراً .. وأخشى إن أنا تعهدت بعملها أن أفسدها .. وأسبب لك مشكلة كبرى .

ورفع إلىّ وجهه وقد بدا متهللا يفيض بالبشر كأن قولى قد أوجد حلا لمشكلته .. وصاح فرحاً :

— لا .. لا ... المسألة فى غاية البساطة .. ولا تحتاج إلى أى مجهود خاص ، أو مهارة معينة .. سأشرح لك بالضبط كل ما يجب عليك عمله .. وأؤكد لك أنك لن تجد صعوبة فى شىء ما ...

وقبل أن أجيبه بالقبول أو الرفض .. رأيته قد أخرج من عباءته عصاً صغيرة وقدمها إلىّ .. وأخرج من جيبه ورقة مطوية وكيساً صغيراً ، وبدأ يشرح المهمة العجيبة قائلا :

ـــ هذا بيان بالأرواح المطلوب قبضها .. وأمام كل منها بضع ملاحظات ستكون ذات فائدة لك ، وليس عليك إلا أن تشير إلى الروح بهذه العصا ... حتى تترك جسدها مطيعة صاغرة .. وعندما تتجمع لديك كل الأرواح المطلوب قبضها فى هذا الكيس تحضرها إلىّ .. هذا هو كل ما أطلبه منك ... ولن أنسى لك هذا الصنيع أبد الدهر .

ومد إلىّ يده بالورقة والكيس دون أن يعطينى فرصة للتفكير فيما أنا مقدم عليه .. ودفعنى حب الاستطلاع إلى أن أمسك بالورقة التى بها بيان الأرواح .. فألقى عليها نظرة عابرة .

ولكنى لم أكد أقرأ بضعة أسطر مما بها .. حتى دفعت بها إليه فى عنف ، وقلت له مرتاعاً :

— لا .. لا .. ياسيدى .. هذا شيء فظيع .. هذه قسوة متناهية .. أعفنى من هذا العمل .. أرجوك .. لا تحملنى ما لا طاقة لى به .. إن مجرد القراءة قد جعل بدنى يصاب بقشعريرة .. فما بالك بالتنفيذ ...

وكنت صادقاً فى قولى كل الصدق .. فقد كانت الورقة أشبه بفواتير التجار .. فهى عبارة عن جدول سطرت به ثلاث خانات .. الأولى كتب بها الاسم .. والثانية الوقت .. والثالثة المكان .

وكان أول اسم وقع عليه بصرى هو الآنسة (زيزى ابراهيم) ، وكان الوقت المطلوب قبض روحها هى فيه الساعة الثانية عشرة ظهراً .. والمكان هو شاطىء سيدى بشر .. أى أننى سأفتتح عملى الجليل بإغراق آنسة فى مقتبل العمر بين أمواج سيدى بشر .

يا للفظاعة .. لقد ترامت لى الآنسة المذكورة بعين الوهم وقد ارتدت مايوهاً من قطعتين .. وسرى جسدها فى رقة بين الأمواج وحملها التيار بعيداً عن الشاطىء

وحاولت الرجوع فأضناها الجهد، وصرخت، فلم يسمعها إلا مخلوق واحد .. وهو أنا .

وتبصرنى الفتاة فتهافت نحوى . ولكنى بدلا من أن أتقدم إليها فأنتشلها من بين الأمواج .. كأى رجل به ذرة من الشهامة .. أشير إليها بالعصى .. فأقبض روحها .. وأترك جسدها الجميل يهوى إلى قاع البحر .

يا للوحشية .. أنا .. أفعل ذلك ؟

ونظرت إلى عزرائيل فى غضب واستياء .. فلم أر بوجهه أى مظهر من مظاهر الخجل على سوء فعلته .. بل كان يهز رأسه فى دهشة متسائلا :

— ما هذا الشىء الفظيع الذى تقول إنه قسوة متناهية ؟

فأجبته فى غضب :

— تطلب منى إغراق آنسة فى مقتبل العمر .. ثم تتساءل عن وجه الفظاعة فى هذا ؟

— نعم، وما زلت أتساءل ! .

— آنسة فى مقتبل العمر .. غضة بضة .. أضاقت بك الأرض فلم تجد إلا هذه الآنسة تنقض عليها

فتقطف عودها الأخضر النضر ؟ لِمَ لا تتركها تتمتع بشبابها وحياتها ؟

— ولكنك ياسيدى تعلم أن الدنيا لا تستحق أن يعيش فيها المرء . . ولقد قلت أنت نفسك : أن بها من السيئات ما يجعل الانسان يفضل الفرار منها لولا خوفه من الموت . . فهذه الفتاة سنرحمها من شرور الحياة ! !

وهنا تذكرت الدنيا بقبحها ومصائبها ورذائلها . . .

فرأيت عزرائيل على حق ، غير أنى قلت له :

— ولكن ألا يمكن أن تختار لها ميتة أخرى . . غير الغرق . . فإنى أرى فيها ميتة بشعة ؟

— وما وجه البشاعة فيها . . ألم تمت أنت نفسك تحت عجلات الترام ؟

— نعم . . .

— أتراك قد أحسست بما يتخيّل الناس من آلام الموت وأوجاعه وبشاعته وشناعته ؟

— كلا مطلقاً . . لقد كانت ميتة سهلة هينة .

— وهذه أيضاً ستكون مثلك . . فالموت هو الموت

مهما اختلفت وسائله .. وهو جميل محبب مهما تنوّعت مظاهره .. ومهما بدا للانسان من بشاعته .

ومددت يدى فاستعدت الورقة .. بعد أن هدأ روعى واستعدت فى ذهنى حقيقة الموت ..

وبدأت القراءة .. الاسم الثانى .. المعلم « حنفى عبد الغفور السماك » وزوجته « زهرة ابراهيم » ... كلاهما فى زمن واحد .. ومكان واحد .. الساعة الثانية بعد الظهر .. تحت أنقاض منزل فى حى سيدى زينهم .. «يا ساتر يا رب » !

ونظرت إلى عزرائيل بطرف عينى نظرة مليئة بالغيظ .. ولكنى عدت فتذكرت حقيقة الدنيا وحقيقة الموت ، فلم أنبس ببنت شفه ..

ولم يدعنى عزرائيل أتم القراءة .. إذ كان موعده قد أزف .. وكان فى عجلة من أمره .. فقال فى لهجة المتعجل :

— لا حاجة بك إلى أن تتم قراءتها الآن .. فالخط

واضح ... ولا أظنك ستخطىء فى قراءته ... وعلى أية حال ...

ثم مد يده فأخرج من جيبه جهازاً صغيراً فى حجم الكف، وأردف قائلا :

— هذا جهاز لاسلكى صغير .. يمكنك بواسطته الاتصال بى فى أية لحظة إن صادفتك عقبات .. ولو أننى أظنك لن تحتاجه ... لأنك سترى المسألة فى غاية البساطة .

وهزّ يدى مودعاً ... واتفقنا على أن نلتقى فى تلك الساحة التى التقينا بها أول مرة .

وانطلق عزرائيل صاعداً إلى السماء .. تاركا إياى معلقاً بين السماء والأرض .. وقد أمسكت بيدى الورقة والعصا والكيس والجهاز .. وقد أصابتنى حيرة ودهشة ما أظن أحداً يستطيع حتى مجرد تخيلهما .

من يصدق هذا ؟ ... من يخطر له على بال أنى سأعود إلى الأرض . ؟ .. وبأى صفة ؟ !! .. بصفة عزرائيل الموحش المخيف !! .. سأعود لأقبض الأرواح

وأخلف اليتامى والثكالى .. والأعين الدامعة .. والقلوب الموجعة !!

وأحسست بأنى على وشك أن أضعف ، ولكنى تمالكت ، وقلت لنفسى :

— إن العمل عمل .. لقد وعدت الرجل .. وسينجز حر ما وعد !!

obeikandl.com

الفصل الرابع

نائب عزرائيل

ووقفت أفكر برهة وأنا أهز العصا فى يدى كأنى « ماريشال » فى ميدان قتال .. وشعرت بالكبرياء تملأ نفسى .. فقد بدأت أحس بمدى المسؤولية الملقاة على عاتقى .. إنى لم أعد بعد شيئاً تافهاً .. إنى لم أعد مجرد إنسان . . أو روح إنسان . . لقد أصبحت نائب عزرائيل . . أو على الأصح عزرائيل نفسه ، ما دمت أملك هذه العصا التى أستطيع أن أشير بها إلى الأرواح فتغادر أجسادها مطيعة صاغرة . . أجل . . لقد أضحت أرواح البشر كلها فى يدى .

وهنا خطر بى خاطر عجيب . . لقد كنت فيما مضى أعجب لتلك الطريقة التى يسير عليها الموت ، وأرى أنه كثيراً ما يأخذ الشخص الذى لا يجب أخذه . . . وأنه — كما قلت لعزرائيل — بلا قواعد ولا نظم . .

فما استطعت مرة واحدة أن أبصره فى موضعه . . وما أشعرنى قط بحكمته ورويته ، وإنى لأوقن أن الدنيا ربما قد تكون خيراً مما كانت لو أن للموت قواعد ونظم . . فلا يصيب إلا الأشرار والذين لم يعد لوجودهم فى الدنيا نفعاً ولا فائدة .

وبدأت ترد على خاطرى حوادث الموت الطائشة الحمقاء التى رأيتها فى الدنيا . . والتى لم أكن أجد لها وقتئذ أية حكمة أو معنى .

ذكرت ذلك الطبيب الشاب . . الملىء بالصحة والقوة والذى بدت أمامه طرق المجد ممهدة معبدة . . وبسم له الحظ . . فدفعه إلى قمة الشهرة فى غمضة عين ، وأصبح على حداثته يشار إليه بالبنان . . ولم تحرمه الحياة من متعاتها ، فوهبته زوجة حسناء طيبة ، وطفلا جميلا قرت به عيناه . . .

وذهب الطبيب ذات يوم يعود مريضاً أقعدته العلة وأزمن به الداء . . وفحص المريض . . وقلبه يمنة ويسرة ثم خرج من حجرة المريض يتبعه أهل الدار . . . وقلب شفتيه وهز رأسه فى يأس ، وقال لهم فى صوت خفيض :

— أصارحكم القول.. لم يعد هناك أمل ولا رجاء. إن أيامه فى الحياة قد أضحت معدودات .. ولا أظن الطب سيجديه نفعاً .

ولم يتأثر أهله كثيراً ولم يحزنهم قول الطبيب فقد كانوا يعلمون ذلك قبل أن يقوله . . ولم يسكن بجيئهم به إلا إطلاقاً لآخر سهم فى جعبتهم التى طاشت كل سهامها .

وبعد ساعتين أتى إلىّ صاحب لى قد اصفر وجهه ، وهتف بصوت مبحوح :

— لقد مات !!

— رحمه الله .. لقد أنقذه الموت من أوجاع المرض .

— أى مرض ؟.. إنه لم يشك مرضاً قط .

— ألست تقصد الرجل المريض ؟ !

وهز صاحبي رأسه فى يأس ، وتساقطت من عينيه دمعتان وهمس :

— إنه الطبيب .

— الطبيب ؟ !!

وقفزت من مقعدى كأن امرءً قد وخزنى فى جانبى

obeikandl.com

أو كأن شيطاناً قد مسنى .. أو قد مات الطبيب ؟ !

يا للموت الهازل .. يا للموت الأحمق الطائش !!

ذلك الرجل الممتلىء صحة وقوة والذى لم يكن يتوقع لذلك الجسد المحطم أكثر من أيام معدودات !! .. قد بخل عليه الموت حتى بهذه الأيام المعدودات فلم يهبه هو إلا دقائق وساعات .

لقد تيتم ابنه .. وترملت زوجته .. وثكلت أمه .. وبيعت عيادته .. وأصبح كأن لم يكن .. والرجل المريض مازال مريضاً .. لا شفى ولا مات .

وأمسكت رأسى وقتذاك أعتصره علّى أجد سبباً لهذا الخلط وحكمة لهذا البدل .. فأعيانى البحث ولم أشك لحظة فى أنى لو كنت مكان عزرائيل لما خطر لى قط أن أترك المريض وأقبض روح الطبيب ، اللهم إلا أن أكون فى حالة سكر وفى غير وعى .. وهو ما استبعد أنزه عنه عزرائيل .

وذكرت تلك الزهرة الآدمية النضرة العاطرة .. التى تلألأت البسمات فى وجهها .. كما يتلألأ الندى على

وجنات وردة صافحتها أشعة الشمس فى الصباح .

وذكرت روحها المرحة الضاحكة .. وآمالها الحلوة وأمانيها التى لا حد لها .. كانت شديدة الثقة بالحياة قوية الإيمان بالمستقبل ، وكانت تعيش من أحلامها فى قصور ذهبية .. ولم تبخل عليها الحياة بما يحقق أمانيها فوهبتها خطيباً أحست بأنه إلف روحها .. فزادت الحياة فى نظرها ازدهاراً . . وبدأت ترسم فى رأسها ثوب الزفاف .. وبدأت تحلم بدارها الجديدة .. وكيف تنظمها وتنسقها .. وتتخيل أطفالها .. وكيف يلهون ويلعبون وكيف ستحاول هى تأديبهم .

وذكرت كيف قابلتها عائدة من عند « الخياطة » قبل موعد الزفاف ببضعة أيام ، وكيف كان السرور يبرق فى عينيها والسعادة تشع من وجهها .. ودعتنى إلى حضور الزفاف ، فهنأتها مقدماً .

وبعد يومين أمسكت بالأهرام .. فإذا صورتها فى صفحة الوفيات .. لقد ذوت الزهرة واحتواها الثرى .

وخرجت من الدار .. فكان أول ما وقع عليه بصرى

obeikandl.com

ذلك المتسول الكهل الضرير .. الذى بلغ من العمر أرذله .. والذى أضاع عمره تحت ذلك الجدار .. يطلب حسنة تعينه على حياة أغلب ظنى أنها لا تساوى الحسنة ، ولا حتى السيئة .

ورأيت رأسى يضطرب بسؤال .. ولم أستطع له جواباً ..؟.. أترى عزرائيل وهو فى طريقه ليقبض روح الفتاة الناضرة لم يمر على هذا الجسد الذابل الذاوى .. وهل لم يصبه الخجل وهو يصعد بالروح الأولى ويترك الثانية ؟

أترى لديه حكمة فى هذا البدل ؟

وذكرت حوادث كثيرة مشابهة .. وذكرت أكثر من ذلك أننى كنت أتمنى عقب كل حادثة أن أكون مكان عزرائيل .. حتى أريه كيف تقبض الأرواح وكيف تكون حكمة !! .. وأجعل الناس يحسون أننى لا أضع الشىء فى غير موضعه .. ويدركون أن كل روح قد أخذتها تستحق الأخذ .. فلا تعود تضنيهم حسرة على موتاهم .. ولا يعودون يحسون بخسارة

obeikandl.com

لمقدمهم .. بل على النقيض .. يشعرون بأن الخير كل الخير فى موتهم .

أجل .. كم كنت أود أن أكون مكان عزرائيل فأريه كيف يكون إصابة الهدف .. وكيف يكون إحكام الإصابة .. فأسمع بعدها من البشر تصفيق الأيدى بدل لطم الخدود .. وصيحات الإعجاب بدل صرخات الحزن والألم .

والآن وقد أمسكت بالعصا فى يدى .. وتحققت لى تلك الأمنية التى كنت أظنها خرافة لا تتحقق ... وأصبحت الأرواح رهن إشارتى .. فليس علىّ إلا أن أشير لها بالعصا حتى تفارق أجسادها طائعة صاغرة .

الآن وقد أصبحت عزرائيل الذى تمنيت أن أكونه .

أترانى سأحقق تلك النوايا التى دارت برأسى فى زمن مضى ، يوم كنت لا أزيد على مخلوق ضعيف فى أغلال جسده ؟!

أترانى سأتقيد بذلك البيان " ؟ " الذى عزرائيل .. فأرتكب تلك الأخطاء التى كانت تثير فى نفسى الدهشة

obeikandl.com

والغضب ؟ . . أترانى سأتبع ذلك البيان بكل ما فيه من متناقضات كنت أربأ بنفسى فى حياتى عن ارتكابها ؟

كلا . . هذه فرصة العمر . . ولن أكون من الحماقة بحيث أتركها تمر . . لا بد أن أكون عزرائيلا نموذجياً سأضرب للسيد عزرائيل المثل الصالح . . فلعله يبصر على ضوئه مقدار ما كان يرتكب من أخطاء . . ولعلى أرسم له طريقاً سوياً يسير على هداه فى مستقبل الزمن فأكون بذلك قد أسديت إلى البشر خدمة كبرى ووضعت لهم نظما وقواعد للموت . . فلا يعودون يفاجئون به بعد ذلك . . وتصبح حياتهم خيراً من تلك الحياة القلقة المضطربة .

وأحسست برأسى يصطخب بالأفكار . . ورأيت نفسى حائراً بين أمرين : واجبى نحو عزرائيل ، وواجبى نحو الانسان المسكين . . فلا شك أن فى الخروج عن البيان ، وفى محاولتى قبض أرواح غير التى أدرجت فيه ضرراً بليغاً بعزرائيل . . وإخلالا بعهدى معه ووعدى له .

ولكن العمل الجليل الذى تخيلت أننى قد أستطيع

عمله للإنسان .. يستحق منى أن أحنث بكل وعد وأن أخون كل ميثاق وعهد .. ولا أظن خيانتى للعهد فى تلك الحالة تسمى خيانة .. بل تضحية ومروءة .. لأننى أعتقد أن الرذائل لن تكون رذائلا إلا بما ينتج عنها ، وأرى أن من السخف أن يحاول الانسان التمسك بالصفات الحميدة .. إذا كان عكسها قد يؤدى إلى خير منها .. وكم صادفتنى فى الحياة ظروف كان الكذب فيها خيراً ألف مرة من الصدق .

وعلى ذلك فقد استقر رأيى ألا أتقيد فى عملى بالورقة التى معى .. وأن أكون حراً فى تفكيرى وفى تصرفاتى وأن أقبض من الأرواح ما أراه يستحق القبض ..

وبدأت فى الهبوط .. وأنا أستعرض فى رأسى تلك الأرواح التى سأبدأ فى أخذها قبل غيرها .. وأخذت أبحث عن أكثر أبناء آدم ضرراً بأبناء آدم .. وأشدهم فتكاً بهم .. وأخذت أنقب فى ذاكرتى عن أكثر الناس إجراماً وأشدهم خطورة .. إذ كان علىّ أن أبدأ بتطهير الأرض منهم حتى أجعل الناس أكثر شعوراً بالأمن

وأكثر اطمئناناً على حياتهم .. ويلى ذلك المرضى والعجزة والمجانين الذين تكاد تضيق بهم الدنيا على سعتها والذين ليسوا هم بأحياء ولا أموات .

ولكنى وجدت وقتى أضيق من أحاول حتى مجرد إحصائهم .. ورأيت أننى لا بد أن أقتصر على أقل عدد ممكن من الأرواح التى أستطيع بأخذها أن أؤدى خدمة عامة للإنسانية .

وهنا كان لا بد لى من أن أحاول التفكير فى هدوء .. حتى يكون تفكيرى منطقياً معقولا .. فيقودنى إلى أحسن النتائج .. لأن المسألة كانت أجل من أن أحاول حلها حلا مرتجلا .. فلا أظن الفرصة قد أتيحت لكائن من كان أن ينوب عن عزرائيل فى عمله ، ولا أن يتمتع بتلك الخاصية التى أتمتع بها الآن .. فمن الحمق أن أضيعها دون أن أفيد منها أكبر فائدة يمكن الحصول عليها .

وهنا لاح لى خاطر جعلنى أهتز طرباً ...

قد يكون العالم مليئاً حقاً بالأشرار والمجانين ... وقد يكونون ذوى خطر على من حولهم ... إلا أن

هناك نوعاً معيناً من المجانين الأشرار أخطر كثيراً من النوع العادى .. فهم لا يبدون للناس أنهم مجانين أو أشرار .. ومع ذلك فإن خطرهم لا يقتصر فقط على من حولهم .. بل يتعداهم إلى غيرهم ممن هم بعيدين عنهم كل البعد .. هؤلاء هم أشد الناس فتكا بالناس وأخطر أبناء آدم على أبناء آدم .. هؤلاء هم المجانين العالمون.

هؤلاء المجانين المطلق السراح .. لهم قدرة على خداع الناس ، وإيهامهم أنهم أكثر منهم عقلا .. فيمسكون بزمامهم ويتحكمون فى أمورهم .. ثم يقودونهم إلى الدمار ويلقون بهم إلى التهلكة .

هؤلاء هم من تعودنا أن نسميهم بالزعماء والقادة .. وما أظن هناك أمة من الأمم إلا وقد ابتليت بذلك النوع من المجانين .. وهم يبدأون بالصراع مع غيرهم حتى يصلوا إلى ما يسمونه بالزعامة أو القيادة .. فيأخذون فى الصراع مع بعضهم البعض ، لإرضاء مطمع أو إشباع شهوة ، ملتمسين فى ذلك ما شاءوا من الأعذار البرّاقة والحجج الكاذبة .. وتصطدم من ورائهم الأمم التى يتولون

قيادتها .. وتشتبك فى صراع مخيف .. تذهب ضحيته الجحافل البريئة كأنها وقود فى أتون تضطرم نيرانه .

وهنا وهناك يقف أولئك المجانين كالمهرجين ليشاهدوا الإنسانية تنتحر ، ويبصروا الانسان يأكل بعضه بعضاً .. فإن توانى أو أصابه الكلل .. صاحوا به يغرونه بالشر ويدفعونه للأذى .. ويندرونه بالفناء إن لم يفن خصمه . هؤلاء المجانين يخدعون الناس بطريقة ساحرة .. لم يستطع أحد حتى الآن أن يكتشف مبلغ ما فيها غش وخديعة ومكر سيء .. هذه الطريقة هى بث ما يسمونه بالروح الوطنية ...

فالروح الوطنية هى شر ما ابتلى به الإنسان .. وهى التى لاتفتأ تقوده إلى تلك الحروب البشعة المنكرة ... فالوطنية هى الأنانية بأسوأ معانيها وأبشع مظاهرها .. فهى أنانية أمة .. وهى أن تشعر مجموعة من الناس بأنهم خير من غيرهم ... وأنهم يجب أن يكون لهم السبق فى الحياة وفى رفاهيتها وفى متعاتها .. ويأتى بعد ذلك غيرهم .. أو لا يأتون قط فذلك لا يهمهم ..

أجل .. إن الأنانية تعنى أن يقول الفرد « أنا أولا » والوطنية تعنى أن تقول الأمة « أنا أولا » .. وهنا يبدأ الصراع .. وينشب القتال .. فكل أمة تريد أن تنهش من جسد العالم أكبر قطعة يمكنها نهشها ... فيأكل الضعيف القوى .. ثم يصطدم القوى بالقوى فيصرعهما الصدام .

هذه هى الوطنية .. التى يظنها الانسان خيرما يفرضه على نفسه .. وهو لو درى لعلم أنه ما قاده إلى التهلكة شر من الوطنية ، ولو كشف عن بصيرته لأدرك أن الانسان يمكن يصل إلى أعلى مراتب الكمال لو استطاع أن ينزع من نفسه ما يسمونه بالوطنية .. وغرس بدلها الإخاء الانسانى الذى يجعل الدنيا كلها وطناً واحداً ، والذى يجعل ابن آدم أخاً لابن آدم ، مهما كان جنسه ، ومهما كان موطنه .. عندئذ .. وعندئذ فقط .. يصبح العالم آمناً من شر الحروب .

ولكن ، هل ترى أولئك المجانين الذين يقودون الأمم يسمحون بذلك الإخاء الانسانى ؟ .. كلا .. وإلا فماذا

يكون عملهم وقتذاك .. وكيف يكونون قادة وزعماء .

تلك هى العلة فى ذلك الجسد المريض .. لو أمكننى استئصالها لأنقذت العالم من السوء ووقيته من كل شر .

أجل .. لو استطعت أن آخذ أرواح هؤلاء المجانين وأنذر الناس أن كل مجنون على شاكلتهم يحاول أن يتجر بذلك الوباء الذى يسمونه الوطنية .. سيكون مصيره مصيرهم ...

آه لو استطعت أن أفعل ذلك .. لضمنت للعالم سلاماً دائماً وأمناً مستتباً .. ولانصرف الناس إلى إسعاد أنفسهم ورفاهيتها .

وهنا أحسست أننى قد توصلت إلى خير ما ينبغى أن أفعل .. فهززت العصا فى يدى وقلت ضاحكا :

« جالك الموت ... »

وأمسكت بالورقة التى بها بيان الأرواح .. وهممت بتمزيقها .. إذ لم أعد فى حاجة إليها .. ولكن خطر لى أن أتسلى بقراءتها فى طريقى إلى الأرض .. ونشرتها بين يدى ومررت ببصرى على الأسماء الثلاثة الأولى وهى

الآنسة زيزى ، والمعلم حنفى ، وزوجته ، مروراً عابراً . . .
وبدأت أقرأ ما يليها من الأسماء .

الاسم الرابع : « جابر بك كيراشو » . . . الزمن الساعة الثانية والنصف عقب وليمة غداء . . المكان على المائدة فى داره الجديدة بباب الخلق .

ولا أدرى ما الذى دفعنى إلى الضحك عند قراءتى لهذا الاسم . . أترانى قد أصبت بغلظة قابضى الأرواح وقساوتهم واستهتارهم بعملية الموت . . . أترى العدوى قد انتقلت إلىّ من عزرائيل بمجرد أن أمسكت عصاه . . أم أن موت السيد كيراشو فى وليمة غداء شىء يثير الضحك حقاً . . . على أية حال ما كان يجب علىّ أن أضحك فقد خيل إلىّ أنى قد أصبحت أشبه « بالحانوتى » الذى تضحكه الجنازات .

الاسم الخامس « محمود أفندى الفنط » الزمن : الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، المكان : شارع السد البرانى حيث يصدمه تاكسى أثناء عبوره الشارع وراء الآنسة « تحيه لفّ » وانهماكه فى مغازلتها .

obeikandi.com

الاسم السادس والسابع والثامن . . . حتى العشرين أسماء لركاب إحدى عربات الترام رقم ١٣ الذاهب إلى الإمام الشافعى ، الزمن : الساعة الخامسة مساء ، والمكان : شارع محمد على وقد خرج الترام عن القضبان واصطدم بأحد المنازل (ملاحظة : المدعو محمود أبو السعد . . سيكون أحد ركاب الترام .. فيجب التأكد تماماً من أن روحه ليست ضمن الأرواح المقبوضة وأنه يستمر على قيد الحياة . . لأنه شخص منحوس ولا يمكن الاستغناء عنه فى أمثال هذه الحوادث) .

الاسم الحادى والعشرون « حسين قدرى » . . الزمن : الساعة الخامسة والنصف مساء ، المكان : عربة بويك مقلوبة فى شارع الهرم حيث كان يسوقها بسرعة ١٢٠ كيلو فى الساعة ، وهو يحتضن الآنسة « فيفى جمال » .

(ملاحظة : الآنسة المذكورة تستمر على قيد الحياة . . حيث أنها مطلوبة فى حوادث انقلاب عربات أخرى) .

وانتهيت من القراءة . . وهممت بأن أمزق الورقة ، ولكن مرت برأسى فكرة جعلتنى أحجم عن تمزيقها .

لقد خطر لى أن أصحاب هاته الأرواح المطلوب

قبضها . . والذين قد قدر لهم أن تنتهى حياتهم اليوم ويبيتون جثثاً هامدة . . لن يحسوا أننى عدلت عن أخذ أرواحهم . . وأنهم سيسيرون فى الطريق الذى قدر لهم أن يسيروا فيها . . حتى ينتهى الأمر بكل منهم إلى أن يقع فى الكارثة التى لا بد أن تؤخذ روحه بعدها . . ولكن الروح لن تجد من يأخذها . . وعلى ذلك إما أن تمسك حائرة بين البقاء والصعود . . وإما أن تصعد من نفسها إلى السماء فتفضحنى وتفضح عزرائيل .

وتملكتنى الحيرة . . فقد كانت المسألة أصعب كثيراً مما تخيلتها فى بادىء الأمر . . وكان من الحمق أن أترك أصحاب الأرواح يتردون فى مهاوى الموت ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة ، ثم أترك أرواحهم حائرة فى أماكنها .

وأخيراً استقر رأيى على أمر صممت على تنفيذه . . فلقد رأيت أننى ما دمت قد عزمت على ألا أقبض أرواحهم وعلى أن أتركهم يتمتعون بالحياة . . وآخذ بدلهم ما يماثلهم عدداً من أولئك المجانين الأشرار الذين يسمونهم : القادة والزعماء . . والذين يعيثون فى الأرض

فساداً ، ويحرضون الناس على قتل بعضهم البعض وتدمير العالم بحجة المحافظة على كيان أوطانهم . كأنهم لا يدرون أن أوطانهم جزء من العالم ، وأن فى هدم العالم هدماً لأوطانهم .

أقول إننى ما دمت قد عقدت النية على إنقاذ هؤلاء الأبرياء ، فيجب علىّ أن أمنعهم من التردّى فى مهاوى الموت ، وأن أنزل إليهم فأبعدهم عن المسلك الشائن الوعر الذى سيودى بهم . . وأقودهم إلى طريق السلامة والنجاة ، فلا أتركهم إلا وهم آمنون سالمون بعيدون عن كل ما كان سيدفع بهم إلى الموت . . وعند ما أنتهى من مهمة إنقاذهم . . يمكننى بعد ذلك أن أشمر عن ساعدى لقبض الأرواح المجرمة التى نويت أن أنقذ منها العالم .

وهكذا بدأت أتوجّه إلى الروح الأولى لأنقذها من مصيرها المحتوم .

الفصل الخامس

الروح الأولى

أخذت أقترب من الأرض . . وقد لاح لى منظرها كأننى هابط من طائرة . . وبدأت أميز الشاطىء الممتد . . وبدت لعينى صفرة الرمال وزرقة المياه . . ثم استطعت أن أميز المظلات التى تناثرت على طول الشاطىء كأنها نقط متجاورة . . ورأيت الناس كأنهم هوامّ تزحف على الرمال .

وزاد اقترابى حتى بدا لى كل شىء فى وضوح تام . . وأخيراً أحسست أننى قد هبطت إلى الأرض ، وأننى عدت مرة ثانية بين البشر . . وإن كنت ما زلت أشعر أنى مطلق من قيود الجسد . . وأننى أستطيع أن أسرى بينهم كما يسرى النسيم ، وأن أنتقل من مكان إلى مكان دون جهد أو مشقة . . فلم تكن الجدران والحجب التى تعوق الأجساد البشرية لتعوقنى . . إذ كنت روحاً طليقة .

obeikandi.com

ونظرت إلى الساعة فى معصم رجل قد استلقى فى الشمس . . فإذا هى الحادية عشرة . . وكان موعدى مع الآنسة الغريقة . . أو على الأصح موعد خروج روحها هو الثانية عشرة . . فقلت لنفسى : أجول جولة بين « الكبائن » والمظلات . . كما تعودت أن أفعل وأنا على قيد الحياة . . إذ لم يكن يسرنى شىء قدر أن أمتع البصر بتلك الأجساد المستلقية على الرمال . . . تلك الأجساد الناضجة المستوية . . التى تمددت فى استرخاء وفتور . . ولكنه استرخاء فى جوفه جمال يتحفز ، وفتور فى باطنه فتنة تتوثب . . فهو استرخاء ملؤه الاستدعاء وفتور ملؤه الفتنة والإغراء .

وبدأت السير أو على الأصح السريان بين طوابير الأجساد المتحركة المتدفقة كأنها جنود تستعرض . . وإن كانوا يختلفون بأنهم يستعرضون أنفسهم ، فكل منهم عارض ومستعرض . . ومعجب ومتعاجب . . وكلهم يتكلفون فى كل ما يفعلون . . فى سيرهم وفى حديثهم وفى ضحكهم . . كأنهم ممثلون على خشبة مسرح . . إذ يحس

كل منهم أن الأبصار لا عمل لها إلا النظر إليه وإلى قوامه المشوق أو وجهه الجذاب أو شخصيته الشهيرة ، فيسير كأنه فى معرض أزياء أو مسابقة جمال .

وخطر لى خاطر خبيث طالما تلهفت إليه وأنا جسد حى . . خاطر كان من المستحيل علىّ تنفيذه وقت أن كنت من البشر . . اللهم إلا إذا حصلت على ما يسمونه « طاقية الإخفاء » . . والذى لم أكن أتمنى فى حياتى شىء قدر الحصول عليها .

أجل . . خطر لى ذلك الخاطر الخبيث الذى ما انفك الشيطان يسرّ لى به فى حياتى . . والذى أذكر أنى حاولت تنفيذه مرة ولكنى بؤت بالخيبة والفشل . . .

كان ذلك منذ بضع سنين وقد جلست خارج « الكابينة » مع أحد أصدقاء السوء . . وكانت صاحبتنا ـ وهى صديقة حديثة العهد بمعرفتنا ـ قد أغلقت عليها الباب وأخذت تخلع ملابسها لتلبس المايوه . . . وتمنيت وقتذاك لو استطعت أن أخترق ببصرى تلك الجدران التى تخفى عنا الفتاة وقد خلعت ملابسها وبدت عارية كحواء

من غير ورقة توت . . وتخيلت ذلك الصدر الممتلىء وقد تحرر من قيود الملابس وبدا طليقاً فى ثورة وعنف بذلك اللون الأبيض المشرب بالحمرة ، وذلك الامتلاء المتماسك فى غير ترهل . . . ونظرت إلى صاحبى فرأيته يهز رأسه أسفاً كالمحروم الذى يتضور جوعاً وأمامه أشهى الطعام .

ودفعنا جنون الصبا لأن ندبر مؤامرة تهيىء لنا أن نبصر ذلك التمثال الحى الرائع . . فانتظرنا حتى خرجت الفتاة ونزلت إلى البحر ثم عادت لتجفف جسدها وتبدل ملابسها مرة أخرى .

وقبل أن تدخل الفتاة كنا قد تسللنا إلى داخل « الكابينة » واختبأنا خلف ستار أخفانا عن أبصارها . . ووقفنا ننتظر .

ودخلت الفتاة تقفز وتتواثب ، وأخذت تتغنى بإحدى الأغنيات . . . وكان أول ما فعلته أن وقفت أمام المرآة وهى تتأمل جسدها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ثم ترفع ذقنها إلى أعلا وتتأمل وجهها . . .

وطالت وقفتها أمام المرآة وهى تتأمل نفسها . . ونحن

واقفان على أحر من الجمر . . . ننتظر أن ترفع عن جسدها تلك الغلالة الشفافة التى ألصقتها المياه بجسدها .

وبدأت الفتاة تضحك أمام المرآة وافتر ثغرها فبدت أسنانها لامعة بيضاء . . . فمدت رأسها إلى المرآة وفتحت فمها على آخره وبدت لنا كأنها تفحص أحد ضروسها .

وطال الانتظار . . وازداد بنا الشوق . . حتى رأينا أخيراً قد مدت يدها وأنزلت إحدى حمالات « المايوه » .

وكتمنا أنفاسنا . . وامتدت أعيننا . . واشرأبت أعناقنا . . فقد بدا لنا أعلا الصدر . . وانتظرنا أن تنزل الحمالة الأخرى فيبدو لنا الصدر كاملا .

وفى تلك اللحظة أبصرت بصاحبي قد وضع يده على أنفه فإنه يكتم « عطسة » على وشك أن تفلت . . وبدا لى يهتز كأنما « العطسة » تحاول أن تجد لها مخرجاً . وأخيراً حدثت الكارثة ، وعطس صاحبي « عطسة » زلزلت منها الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . وقالت الفتاة مالها .

أجل لقد صرخت الفتاة . . وأعادت « المايوه » كما كان

ونظرت إلينا نظرتها إلى طفلين عابثين . . وطردتنا من الكابينة كما طرد آدم من الجنة .

ذكرت تلك الحادثة . . ورأيتنى الآن أستطيع أن أشبع لهفتى الماضية . . فأنفذ إلى كل « كابينة » وأتمتع برؤية الأجساد البضة العارية ، وأحقق تلك الأمنية التى طالما لوّح لى بها الشيطان .

ولكننى شعرت بزاجر ينهانى عن هذا العبث . . ماذا تركت إذاً لهؤلاء البشر إذا كنت سأنساق إلى هذه الرغبات البشرية التافهة ؟ . وأى فارق سيكون بينى وبين أى إنسان إذا اندفعت فى هذا اللهو الفاضح ؟ !

أى عار يمكن أن يلحق بنائب عزرائيل . . وهو يتسلل داخل « الكبائن » مسترقاً النظر إلى الأجساد العارية . . ؟

وهكذا طردت من نفسى ذلك الخاطر واكتفيت بأن أسير وسط الناس . . قانعاً بمشاهدة مناظرهم المضحكة وسماع أحاديثهم المسلية .

وحلا لى أن أقف برهة تحت إحدى المظلات . .

بين امرأتين جالستين . . أو على الأصح بين لسانين متحركين . . كأنهما المنشار الذى يقولون فيه « طالع واكل . . نازل واكل » . . .

قالت الأولى :

— أترين تلك السيدة الطويلة التى ترتدى « البيجاما » الزرقاء ؟

— أتقصدين تلك التى تسير مع الرجل القصير ؟

— نعم . . إنه زوجها . . زكى بك عبد القوى . . مسكين هذا الرجل إنهم يقولون إنها تضربه ضرباً مبرحاً وإنها لا تعود إلى دارها قبل الساعة الثالثة صباحاً . .

— ولِمَ لا يطلقها ؟

— إنه يحبها !

— على أية حالة إنه خير من عبد الرحيم بك الذى سمعت أنه يرجو زوجته ألا تبيت خارج الدار أكثر من يومين فى الأسبوع . . وقيل إنها وعدته بذلك ؟

— أتدرين أن سنيه هانم قد طلقت ؟

— ولكنها لم يمض على زواجها سوى أسبوع واحد !

obeikandl.com

— لقد اتضح لزوجها غرامها مع السائق ! . .

وشعرت بالتقزز مما سمعت . . ولم يكن تقززى من أصحاب الحوادث أنفسهم بقدر تقززى من تلك الألسنة التى تهوى الفضائح وتلذ لها كما يلذ للنهم طيب الطعام .

وانتقلت إلى مظلة أخرى قد جلس تحتها شابان يتحدثان ، قال الأول :

— أترى تلك السيقان الممدودة ؟

— لا تحملق هكذا فإن زوجتك ترقبك .

— إذاً فهيا بنا نمشى قليـــلا . . فإنى أحس كأنى فى سجن .

— على ألا نقرب المنطقة الخطرة ؟ ! !

— المنطقة الخطرة لم يغشها الخطر بعد . . لأنى لا أبصر فى « الكابينة » غير زوجها واقفاً على قدميه .

— عجباً . . على قدميه حتى الآن ؟ !

— أجل فإنه لا يقف على يديه إلا عنـدما تحضر هى وتنزل إلى البحر .

obeikandi.com

وحيرنى حديث الشابين عن منطقة الخطر . . . وعن الزوج الذى لا يقف على يديه إلا عند ما تنزل زوجته إلى البحر . . وظننت أن بهما لوثة . . وصممت ألا أفارقهما حتى أكتشف ما خفى من أمرهما .

وبعد لحظة قبض أحدهما على يد الآخر بشدة قائلا :

ـــ لقد أقبلت .

وأحسست أنا أنها حقاً قد أقبلت . . بل لم يكن هناك مخلوق على الشاطىء لم يحس أنها أقبلت . . . ورأيتها شقراء براقة . . ذات وجه يضىء فى النفوس كما يضىء البدر فى الليلة الظلماء . . لا يميزه عن البدر . . إلا ذلك الأحمر الذى رسم بدقة على شفتيه . . وهذه الابتسامة الحلوة التى تفتر عنها تلك الشفتان الرقيقتان .

ولم يعد يخفى على ذكائى ـــ إن كان هناك ذكاء ـــ أن صاحبتنا هذه هى الخطر . . وأن « كابينتها » وما حولها منطقة الخطر . . وأن الشابين متزوجان . . وقد حرمت عليهما زوجتاهما الاقتراب من هذه المنطقة ، وإلا حدث لهما ما لا تحمد عقباه .

وبعد هنيهة أبصرت صاحبتنا قد ارتدت « المايوه » .. أو شيئاً شبيهاً به .. مكوّناً من قطعتين .. قطعة شدّت إلى صدرها وقطعة شدّت إلى خصرها .. وعلم الله أن القطعتين قد أظهرتا من الجسد أكثر مما سترتاه .. واندفعت صاحبتنا تعدو إلى البحر وخلفها ما يقرب من عشرة شبان يصيحون فى شبه مظاهرة .. وبدا فى البحر نشاط عجيب ، فقد أثارت الفتاة ومن حولها من الشبان ضجة هائلة .. فهى تتصايح وهم يتصايحون ، وهى تتضاحك وهم يتضاحكون ، وقد أخذوا يقلبونها بين أيديهم كأنها دمية جميلة وهى تندفع من هذا إلى ذاك .. والناس على الشاطىء ينظرون إلى كل ذلك فى دهشة وعجب .

وحانت منى نظرة إلى ناحية من الشاطىء فرأيت رجلا قد انفرد بنفسه .. وانهمك فى « ضرب البلانسات » والسير على يديه .. دون أن يلتفت إلى شىء مما حوله . فقد استنفدت هذه « الشقلبة » كل اهتمامه ، وبدا كأنه يؤدى واجباً قد كُلِّف به .

ونظرت إلى الشابين فاذا هما قد أغرقا فى الضحك ..

obeikandi.com

وقد أخذا يرقبان ذلك السائر على يديه، وقال أحدهما:

ـــ لقد بدأ «بلانس» افندى عمله.

وأدركت حينئذ أن الرجل لابد أن يكون زوج الصارخة الصائحة .. وأنه من هواة «الشقلبة» والسير على اليدين .. وأنه يتهز فرصة انهماك زوجته فى اللعب مع أصحابه والعبث بين الأمواج .. فيبدأ هو «الشقلبة» على الشاطىء والسير على يديه .. دون أن يهتم كثيراً بما تفعله زوجته الجميلة مع أصدقائه المخلصين.

وخطر لى أن أذهب إليه فأقيمه على قدميه .. ثم أصفعه بضع صفعات على صدغيه .. وأطلب منه أن يستدعى زوجته من بين الذئاب الضارية ... وأخبره أنه إذا كان لابد له من السير على يديه .. فليغلق الدار على زوجته أولا، وليسر على يديه بعد ذلك كما يشاء.

ولكنى تمالكت نفسى .. فقد تذكرت أن هناك فى الحياة الكثير من هذا النوع .. وتذكرت أيضاً أنى لم أنزل إلى الأرض لأقوّم أخلاق الناس بل لآخذ أرواحهم.

وهنا تذكرت الفتاة الغريقة التى أتيت إلى الشاطىء

خصيصاً لإنقاذها . . ونظرت إلى أقرب ساعة إلىّ فإذا بها الحادية عشرة والنصف فرأيت أن الوقت قد أزف للبحث عنها ومنعها مما قد يؤدى بها إلى الهلاك .

ولم يطل بى البحث فقد وجدتها سريعاً . . إذ أحسست فى نفسى بما عرفنى بها . . ودلنى عمن تكون هذه « الزيزى » بين كل تلك الفتيات اللاتى احتشد بهن الشاطىء .

ووقفت أمامها أتأملها . . فأخذت بها ! وحمدت الله أن ألهمنى الصواب فجئت لإنقاذها . . . فقد كانت حقاً تستحق الإنقاذ !!

وقبل أن أحاول رسم صورتها فى الأذهان . . يجب أن أبدأ القول بأنها لم تكن على كثير من الجمال ، وأعنى بالجمال ذلك الشىء البراق الذى يبهرنا ضوؤه . . . كتلك المرأة الشقراء المضيئة التى رأيتها منذ لحظات وقد التف حولها الشبان وتطلعت إليها الأعين . . . أجل لم تكن الفتاة بيضاء ولا شقراء ، ولم تكن فى تقاطيعها دقة متناهية أو جمال عجيب . . ولم يكن فمها كخاتم سليمان ، ولم يكن على خديها وردتان أو تفاحتان . . ولم يكن على وجهها

أى أثر لأصباغ مرسومة بدقة وإتقان ، حتى تخفى بعض ما به من هنات . . . لم يكن بها شيء من هذا . . ومع ذلك فقد كان بها كل شيء ! !

كان أول ما أبصرته بها وهى متكئة على رمال الشاطىء : شعر قد تهدل على كتفيها ثم كسا ظهرها واسترسل على الرمال الصفراء . . كأنه ينابيع من الأمل العذب تسترسل فى صحراء من اليأس جرداء مقفرة .

ووقفت أتأمل ذلك الشعر . . ورأيتنى أستعيد إلى ذهنى قصة تعودت جدتى — رحمة الله عليها — أن تقصها علىّ فى طفولتى . . . وكان يحلو لى أن أستعيدها منها مراراً وتكرارا .

هذه القصة (وأغلب ظنى أن معاصرىّ فى سن الطفولة قد سمعوها كما سمعتها وأعجبوا بها كما أعجبت) . . هى قصة لولية بنت مرجان وعشيقها يوسف . . . وأهم ما فى هذه القصة . . والذى جعلنى أتذكرها فى ذلك الوقت هو أن هذه « اللولية بنت مرجان » كانت من فرط طول شعرها . . . تدلى به من النافذة ليصعد عليه أبوها وأمها

عندما كانوا يصيحون بها : « يالولية يابنت مرجان دلدلى شعورك الطوال وخدى أمك وأبوك من حر الجبال » .

ولا أدرى الآن بالضبط لِمَ كان أبوها وأمها يصران على الصعود من النافذة و « الشعبطة » على شعر « لولية » بدلا من الصعود على السلم كبقية خلق الله . وإن لم يكن هناك سلم للبيت فلِمَ لم يقطنا فى دور أرضى ويوفرا على نفسيهما مشقة تسلق الشعور « والشعبطة » على النوافذ .

على أية حال لم يكن هناك وقت للتساؤل . . فقد أحسست أن هذه « اللولية » المتكئة على الشاطىء . . . تستطيع هى الأخرى . . . لو أدلت بشعرها إلى أى إنسان يائس شقى . . لرفعته من هاوية اليأس إلى قمة الأمل ، ومن حضيض الشقاء إلى ذروة النعيم .

وتلفتت الفتاة ، فأبصرت وجهها . . وجهاً كما قلت غير برّاق ولا ملوّن ولكنه وجه لوحته الشمس فبدا فى سمرة حمراء . . أبصرت فيه عينين خضراوين

كأنهما عينا هرة . . لم يكن فى وجهها شىء عجيب . . ومع ذلك فقد كان أعجب وجه رأيته .

كانت الفتاة فى نحو الرابعة عشرة ، وقد ارتدت « بلوزة » بيضاء و « بنطلون » فانلة وقد شمرت عن ساقيها حتى ما تحت الركبة وبدت ساقاها ممتلئتين قد علاهما زغب أصفر خفيف . . وكانت تقلب صفحات مجلة فى يدها . . وإن كان يبدو لى أنها ليست منهمكة تماماً فى قراءتها ، فقد كانت تسترق البصر إلى فتى قد جلس تحت مظلة قريبة . . وكان الفتى يبادلها النظرات . . ثم رأيته يشير إليها برأسه نحو البحر فاذا بها تطوى الصحيفة ، ثم تنهض فتختفى داخل الكابينة وهممت بالدخول خلفها . . ولكنى خشيت أن تكون قد خلعت ملابسها لترتدى المايوه . . فانتظرت فى الخارج وفعلا صدق ظنى فلم تمض بضع لحظات حتى أبصرت بنموذج رائع الجمال بديع التكوين ، حتى أقسمت فى نفسى أنه لو عاد صانع ڤينوس إلى الحياة وأبصر الفتاة فى وقفتها على الشاطىء لحطم تمثاله ، وجعل من الفتاة نموذجاً جديداً له . . لقد كانت الفتاة معجزة خارقة . . حتى لقد

obeikandl.com

أشعرتنى بقدرة الله كما لم يشعرنى أى شىء أبصرت به فى هذه الحياة . . . وخيّل إلىّ أنها لو وجدت فى عصر موسى لأغنته عن عصاه وعن معجزاته . . . فقد كان يكفيه أن يقدمها للكافرين حتى يؤمنوا بالله وبقدرته .

واندفعت الفتاة إلى المياه وقد امتطت صهوة قارب صغير (برسوار) . . وبدا لى أن الفتى قد سبقها إلى البحر ، ووقف ينتظرها خلف أحد « البراميل » . . وابتعدت الفتاة عن الشاطىء ، ولحق بها الفتى فقفز بجوارها وأخذ منها المجذافين واختفيا عن الأعين فى عرض البحر .

واندفعت وراءهما ، فقد بلغت الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق . . أى لم يعد هناك فى حياة الفتاة — بفرض أنى لن أتدخل فى الأمر — إلا خمس دقائق .

واقتربت منهما فاذا هما قد استلقيا فوق (البرسوار) كل منهما فى ناحية . . وقد تقارب وجهاهما وأخذا يتهامسان همس العشاق .

وفجأة علت موجة من أمواج البحر فقلبت (البرسوار)

وحملته بعيداً . . ووجد الفتى والفتاة نفسيهما يغالبان الموج . . والتيار يدفعهما بعيداً عن الشاطىء .

وبدأت الكارثة تحل . . فقد وهنت قوى الفتاة . . وحاول صاحبها الوصول إليها دون جدوى . . وأحسست أن هذه هى اللحظة الحاسمة التى إما أن أشير فيها للفتاة بعصا عزرائيل فتصعد روحها معى . . وأترك جسدها يهوى إلى قاع البحر . . وإما أن أتقدم لإنقاذها فأعيدها إلى الشاطىء سالمة من غير سوء . . ونظرت إلى الفتاة الجزعة ، فأحسست بنفسى لهفة لأن أنقذها بدل المرة . . مائة مرة .

وكان الوقت يمر سريعاً . . وروح الفتاة قد بدت حائرة قلقة . . فلا هى بخارجة ، ولا هى باقية . . وكان علىّ أن أعمل عملا حاسماً .

وأخيراً استقر رأيى على الطريقة التى سأنقذها بها . . فقد وجدتها طريقة مثلى .

أمسكت بالعصا . . ثم أشرت بها إشارة خفيفة إلى الفتى الذى قد أخذ يصارع الموج للوصول إلى الفتاة

دون جدوى . . فغادرت روحه الجسد فى لمح البصر . . فوضعتها بسرعة فى الكيس الذى أعطانيه عزرائيل . . ودلفت بسرعة إلى جسده فاحتللته .

وأحسست أن روح الفتى قد أزعجتها هذه المفاجأة فقد كانت لا تنتظر قط أن تفارق جسدها فى ذلك الوقت ، ولكنى أخبرتها أن هذه المفارقة مؤقتة وأننى سأعيدها بمجرد أن أنقذ الفتاة .

وتقدمت إلى الفتاة . . مندفعاً بين الأمواج بسرعة خارقة . . ولم تمض بضع لحظات حتى كنت قد رسوت بها على أقرب صخرة . . فرفعتها إليها . . وأرقدتها بجوارى . . وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط ، وهى تلهث من فرط الجزع والتعب .

ولم يكن قد أصابها مكروه . . وكانت فى وعيها تماماً . . وكل ما فى الأمر أنها كانت مشدوهة مذهولة . فأخذت أهدىء من روعها حتى تمالكت نفسها وعادت إليها ابتسامتها وحمرة وجهها .

وهنا كان يجب علىّ أن أعيد روح الفتى إلى جسده

وأنطلق فى طريق . . ولكن كانت تحدو بى رغبة جارفة فى الجلوس إلى الفتاة واحتوائها بين ذراعى . . فتعللت بأنه يجب علىّ أن أنتظر حتى أذهب بالفتاة آمنة إلى الشاطىء ، وإلا أغرقها الفتى فى الطريق مرة أخرى .

وكانت أول ما فاهت به الفتاة ، هو أن سألتنى فى دهشة ، مشيرة إلى شىء بجوارى :

— ما هذا ؟ !

ونظرت إلى جوارى فإذا العصا والكيس والورقة وعلبة صغيرة بها الجهاز اللاسلكى ! !

يا للمأزق الحرج . . . لقد أضحت عدة عزرائيل أشياء منظورة بمجرد أن دخلت أنا إلى الجسد . . . بعد أن كانت أشياء شفافة لا يبصرها أحد سواى .

ونظرت إلى أدوات الموت ولم أدر بم أجيبها . . ترى ماذا تقول الفتاة إذا صدقتها القول ورويت لها الحقيقة . . ماذا تقول إذا أخبرتها أن هذه العصا هى التى كنت سآخذ بها روحها . . وأن هذا الكيس ترقد فيه روح صاحبها ، وأن هذه الورقة بيان بالأرواح التى

obeikandl.com

سأصعد بها إلى السماء . . وأن العلبة هى جهاز للاتصال بعزرائيل ! !

لتتخيّل أية فتاة أنها قد جلست مع صاحب لها على صخرة فى البحر بعد أن أنقذها من الغرق . . ثم تحدث إليها بمثل هذا الحديث الذى كان لا يعدو أن يكون حقيقة بالنسبة إلىّ . . ترى ماذا تفعل ؟ !

أغلب ظنى أنها لن تفعل أكثر من أن تقذف بنفسها إلى الماء مرة أخرى هرباً من جنونه المطبق .

ونظرت إلى الفتاة وهززت رأسى وأجبتها ببساطة :

ـ لا أدرى ! ! لقد وجدتها هنا . .

ورأيتها تمد يدها لتمسك بالورقة والعصا ، فصحت بها مستنكراً :

ـ لا . . لا . . هذه الأشياء لا بد أن تكون لشخص تركها هنا وسيعود لأخذها ، ولست أرى من اللياقة أن نعبث بأمتعة الغير .

ثم حاولت أن أغيّر مجرى الحديث ، فابتعدت بها إلى ناحية أخرى من الصخرة قائلا :

— كيف أنت الآن ؟

— ليس بى شىء . . لقد كنت على وشك الغرق ورأيت الموت بعينى (وكدت أقول لها : إنك لا زلت ترينه بل تضعين يدك فى يده) ، ولولاك يا أحمد لما كنت إلا جسداً هامداً .

— أحمد ؟ ! . . أنا يوسف

— يوسف ؟ ! .

ونظرت إلىّ الفتاة محملقة فى دهشة .

يا للحماقة . . ماذا قلت ؟ إن أحمد هذا هو لاشك صاحبها . . وكان يجب علىّ أن أعرف ذلك . . وأسرعت بإصلاح غلطتى فقهقهت بصوت عال وادعيت أنى أقصد المزاح ليس إلا .

وجلسنا متجاورين . . وكان أول ما أتلهف عليه هو أن أمسك بشعرها فأتحسسه بيدى . . وأعبث فيه بأصابعى . . فلم أتردد فى أن أفعل . . لقد كانت لحظاتى قصيرة مع الفتاة . . ومن السخف أن أحرم نفسى مما أتلهف عليه . . وأحطت كتفيها بذراعى ، فلم تغضب

obeikandl.com

الفتاة . . بل رأيتها تزداد التصاقاً بى . . وأحسست برأسها يستريح على صدرى . . . فلم أتردد فى أن أنال الامنية الثانية ومسست بشفتى شعرها . . ونفذ إلى أنفى عبيره . . فملأنى نشوة . . وخيّل إلىّ أنى قد أصبحت ثملا .

ورفعت إلىّ عينيها . . هاتان العينان اللتان أحس أن بهما سهاماً تنفذ إلى قلبى مباشرة . . هاتان العينان اللتان أحس أن وراءهما عالم آخر ملىء بالسحر . . . هاتان العينان اللتان لم أشك لحظة فى أنهما من نوافذ الجنة .

ومددت يدى فأمسكت بذقنها الدقيق . . ولمست بأصابعى شفتيها الملتهبتين ، ثم رفعت وجهها إلىّ واقتربت بشفتى من شفتيها . . . فرأيتها قد أسبلت عينيها . . . فأغمضت عينىّ أنا الآخر وأطبقت على شفتيها . . ونلت الأمنية الثالثة . . والأخيرة .

وفى تلك اللحظة نظرت خلسة إلى أقصى الصخرة . . فلمحت الكيس يضطرب بما فيه . . وأدركت أن صاحبنا « أحمد افندى » . . قد ساءه أن أستغل جسده هذا الاستغلال الوقح . . وأن أنتهز فرصة حبسه فى الكيس

فأقبّل صاحبته على مرأى منه . . دون أن يحرك ساكناً . . اللهم إلا محاولة « الفلفصة » من داخل الكيس .

ورأيتنى أقول له فى نفسى معتذراً عن فعلتى :

— يا صاحبى هوّن عليك . . إنها لم تزد عن قبلة . . أتراك تبخل علىّ بها . . ثمناً لإنقاذها . . ومع ذلك فانى لم أستعمل فيها سوى شفتيك . . وقد علمتك وعلمتها كيف تكون القُبَل . . وسأتركها لك بعد هنيهة تتمتع بها كما تشاء . . ولولاى لما استطعت لقاءها بعد اليوم إلا فى الآخرة . . . ومن يدرى إن كنت ستلقاها حتى هناك .

ورفعت وجهى عن وجه الفتاة . . وتركت رأسها يستند مرة أخرى إلى صدرى . . وهممت أن أفضى إليها ببعض أحاديث الغزل الذى كنت أجيده فى حياتى . . ولكنى سمعت فجأة صوتاً خافتاً جعلنى أرهف أذناى . . وأصيخ السمع جيداً .

كان الصوت أشبه بأزيز خافت يصدر من ذلك الجهاز اللاسلكى الصغير . . وبدأت أفيق من سكرة

obeikandl.com

الغرام ونشوة الهوى . . وتطاير من رأسى أثر القُبَل . .
إن عزرائيل لا شك يريد الاتصال بى ليطمئن على ما فعلت .

ويلى منه . . وويله منى . . لقد كادت الفتاة الساحرة تنسينى إياه .

وزاد الأزيز وضوحاً ، فتركت الفتاة جانباً وعدوت إليه . . واختفيت به عن الفتاة خلف إحدى الصخور .

وقبل أن أحاول إخراجه من صندوقه أمسكت بالعصا فأخرجت روحى من الجسد ، وأعدت إليه روح الفتى . . ولم تكد الروح تستقر فيه حتى رأيت الفتى يندفع إلى الفتاة فيحتويها بين ذراعيه . . ويقبل على شفتيها بلهفة وشغف . . تماماً كما كنت أفعل منذ لحظات .

وأمسكت بالجهاز ، ورفعت سماعة صغيرة إلى أذنى ، وصحت قائلا :

— ها لو !

وأجابنى صوت ناعم رقيق . . جعلنى أهتز من فرط الطرب . . صوت رن فى أذنى . . « سحر لعمرى له

oberkandi.com

فى القلب ترديد » . . فكأنه مس أذنى كما تمس الشفاه الشفاه . . وكأنما رنينه هو رنين القبل . . . قال الصوت العجيب :

— هالو . . « مين يافندم » .

وطربت فى نفسى . . وذهب عنى ذلك الارتباك والشعور بالتقصير فى الواجب . . والخجل من أن يعلم عزرائيل ما كنت أفعل . . ولِمَ الخجل . . وعزرائيل نفسه كان يفعل مثلما كنت أفعل . . فأغلب ظنى أنه كان هو أيضاً غريق فى فيض من خمر الشفاه . . وأنه كان يرتع فى مرتع للهوى خصب ظليل . . وما أظنه لو رأى صاحبتى إلا لكان عاذرى فيما فعلت . . فلا يحس بجنون الهوى إلا العشاق .

ورأيتنى أبتسم وقلت لنفسى . . امزح معها قليلا ، فقد لا تسنح الفرصة مرة أخرى بالحديث مع إحدى الحوريات . . حتى ولا باللاسلكى . . وسألتها مداعباً :

— حضرتك « مدام عزرائيل » ؟

وأجابتنى بضحكة حلوة ناعمة . . كأنما سرّها أن

أقرنها بعزرائيل، وأجابت متصنعة التواضع :

ـ لا يا فندم . . لم يحدث لى هذا الشرف بعد .

ـ أى شرف ! ! إنه هو الذى يشرفه أن تكونى مدام عزرائيل . . فان هذا الصوت الملائكى . . .

وهنا قاطعتنى ضحكة خشنة . . فأدركت أن عزرائيل قد أخذ منها السماعة . . وسمعته يقول ضاحكا :

ـ كفى مغازلة . . خبرنى ماذا فعلت ؟

ووجدتنى أتلعثم، وأصابنى الارتباك، ولم أدر بم أجيبه . . وأردف هو متسائلا :

ـ أقبضت الروح الأولى ؟

ـ حتى الآن . . كلا .

وصاح فى دهشة :

ـ الساعة الآن الواحدة . . . وميعادها الساعة الثانية عشرة . . ومع ذلك تقول : حتى الآن كلا ؟ ! . . . . فيم انتظارك وقد مضت ساعة على الموعد .

ولم أجبه بكلمة . . إذ لم أدر بم أجيب . . . فازداد به الحنق . . وسأل فى دهشة :

— تكلم !! . . . ألم تجد الفتاة ؟

— بل وجدتها . . . وعرفتها من أول نظرة .

— ومع ذلك فلم تأخذ روحها بعد . . ألم تسبح فى الماء ؟

— بل سبحت . . وليتها ما سبحت .

— ليتها ما سبحت ؟! . . لعلها لم تغرق .

— بل غرقت . . وليتها ما غرقت .

— فلِمَ إذاً لم تأخذ روحها ؟

— لقد رَفَضَتْ روحها الصعود .

— رَفَضَتْ !! . . لا تكن أبله . . قل كلاماً غير هذا .

— إذاً فقد رَفَضْت أنا أن آخذها .

— أنت الذى رَفَضْت ؟ !

— نعم أنا !!

— وتقول ذلك دون خجل ولا استحياء !! فيم كان نزولك إذاً . . . . وأين وعدك الذى أعطيته لى . . . ولِمَ لم تف به ؟

— مكره أخاك لا بطل .

— وما الذى أكرهك على أن تحنث به ؟

obeikandl.com

وصمت لحظة، ثم أجبته هامسا :

ـ شعرها ... ياسيد عزائيل ... شعرها ... وصدرها وساقاها وعيناها .... آه لو رأيتها كما رأيتها .. لما ترددت فى أن تستبدلها بحوريتك .. ولهبطت من السماء إلى الأرض فلم تفارقها لحظة واحدة .

وهمس عزرائيل فى حنق :

ـ كف عن هذا الهذر .. والا سمعتك .

ثم تكلم بصوت عال :

ـ وهكذا تقول إنك رفضت أن تأخذ روحها .. من أجل شعرها وصدرها .. وساقيها وعينيها .. ما شاء الله .. يالك من همام .. ولكن ليس الخطأ خطأك . فقد كان علىّ أن أتوقع كل ما حدث ... وكان يجب علىّ أن أعرف أنك زير نساء منذ أن طلبت منى أن أتركك بين السماء والأرض .. على أن أحضر لك بضع حوريات لتسليتك والترفيه عنك ... وكان من الحمق أن أطلب منك أن تقبض روح امرأة ... بعد أن رأيت منك تلك اللهفة عليهن .

obeikandl.com

ثم سكت برهة . . وأردف فى صوت أكثر رقة :

— قد يكون لك العذر فيما فعلت . . . على أية حال دعك من صاحبتنا هذه . . واتركها لى . . . . وعليك بغيرها ممن سطر فى الكشف . . فلا أظنك ستجد فيه من تضعف أمامه وترق له .

وهنا سمعت صوت الحورية تستحثه على إنهاء الحديث فقد بدأ يصيبها الملل ، وسمعته يقول بلهجة سريعة :

— هه . . إلى اللقاء . . سأعتمد عليك . . وسأتصل بك مرة أخرى .

ووضعت الجهاز جانباً بعد أن ودعت عزرائيل . . وألقيت على الفتاة نظرة أخيرة . . ثم سريت بجوارها فمسست شعرها وشفتيها مساً خفيفاً وعدت إلى الشاطىء .

وكانت الساعة وقتئذ قد بلغت الواحدة والنصف . . ولم يبق على انهيار البيت فوق المعلم حنفى وعائلته إلا نصف ساعة . فاندفعت كالريح العاتية . . ولم تمض لحظات حتى كنت فى حى « سيدى زينهم » بالقاهرة ، أبحث عن البيت المنشود .

الفصل السادس

فى سيدى زينهم

هنا سيدى زينهم . . هنا المقابر قد رصت فيها الأجساد على سطح الأرض لا فى باطنها . . هنا الأحياء الذين يقومون بدور الأموات . . والموتى الذين يسعون على الأرض . . هنا قد تجمع كل ما يحاول أولو الأمر محاربته . . ولكنهم يفعلون كل شىء إلا محاربته .

يا لهذا البلد من زعمائه وكبرائه ووزرائه . . يا لهذا البلد من شيوخه ونوابه وكتابه . . يا لهذا البلد من كل أولئك المرتزقة الذين بيدهم أمره .

فى العصور الوسطى كان كثير من الجيوش المحاربة يتكوّن مما يسمونهم « الجنود المرتزقة » . . وهم جنود يحاربون من أجل الرزق . . ومن أجل « أكل العيش » . فالقتال عندهم مهنة وحرفة . . لا يهمهم كثيراً أن يهزموا أعداءهم إلا بقدر ما يحصلون عليه من غنائم وأسلاب

وبقدر ما ينتهكونه من حرمات وما يسبونه من سبايا . لا يهمهم الغرض الذين يحاربون من أجله . . ولكن يهمهم الأجر الذى يدفع لهم . . فليس لهم من أنفسهم دافع للانتصار من أجل وطن أو مبدأ . . وسيان عندهم هذا الجيش أو ذاك . . وهذا الوطن أو ذاك . . فليس لأيهم فضل على الآخر إلا بالأجر الذى يدفع . . وهم لا يحسبون أن هناك ما يستحق التضحية أو بذل النفس . . ولا يبصرون أمامهم إلا المصلحة الخاصة لأنفسهم .

ويخيّل إلىّ أن من بيدهم الأمر فى هذا البلد المسكين يشبهون إلى حد كبير أولئك الجنود المرتزقة . . وأن عملهم لا يعدو فى حقيقته عن أن يكون « أكل عيش » . . وأن كل مطلبهم هو الغنائم من مختلف الأنواع والأشكال . . من مال وشهرة وسلطان وجاه . . الخ . . . وهم يرون أن خير طريق يوصلهم إلى تلك الغنائم هو محاولة التظاهر فى سبيل هذا البلد . . فتجدهم يتصايحون ويتزاحمون . . ويخطبون ويكتبون . .

ويكون ويستبكون . . ولا يفعلون أكثر من أن يأمروا الناس بالبر وينسون أنفسهم .

ما صاح منهم صائح إلا وله من صيحته مأرب . . وما خطب فيهم خطيب إلا وهو يرجو من خطبته مطلباً . . فهو فى قرارة نفسه لا يهمه ما يقوله فى قليل ولا كثير ، ولكن يهمه ما سيعود عليه ، هو ، من ذلك القول ، ولا يهمه قط أن يأتى بفائدة قدر ما يهمه أن يقول الناس عنه إنه هو الذى أتى بها . . ولو خير بين أن تحدث الفائدة فعلا ولا يعرف الناس أنه صاحبها ، وبين أن يعرف الناس أنه صاحبها دون أن يكون لها أثر حقيق فعّال ، لفضل الأمر الأخير . .

فكلهم يتكأكأون على محاربة الفقر والمرض والجهل حتى باتت الكلمات الثلاث من أشهر الكلمات وأقربها إلى الألسن . . ومع ذلك فالفقر والمرض والجهل ما زالوا بخير وعافية . . . لا لشىء إلا لأن زعماءنا وكبراءنا ووزراءنا وخطباءنا وشيوخنا ونوابنا وكتابنا . . كلهم دون أن نستثنى منهم فرداً . . ليسوا إلا مرتزقة .

كل هؤلاء لا يبغون إلا مصلحة خاصة ، ولا يريدون إلا صيحات إعجاب . . حتى هذا الكاتب الذى تفيض مقالته بالنقد لهم وبالسخرية منهم . . لا يهمه من مقاله إلا أجر المقالة . . أو كلمات الإعجاب والتهنئة بعبقريته ولوذعيته . أما محاربة الفقر والمرض والجهل . . فهى أبعد ما تكون عن ذهنه . . وإلا لو كان صادقاً فى قوله لما أضاع وقته فى تلك الكتابة التى كان يعرف أنها لا تجدى فتيلا . . ولحاول أن يصرف ذلك الوقت والجهد فى الإحسان إلى فقير ، أو مواساة مريض ، أو تعليم جاهل . . ولكنه يعلم أنه لو عمل ذلك لما أحس به الناس ولما أعجب به أحد . . اللهم إلا ذلك الفقير أو المريض أو الجاهل . . وهم لا يهمونه فى شىء .

ما أعجب أولئك الذين بيدهم الأمر فى هذا البلد . . هم يحرصون على المناداة بمحاربة الفقر والمرض والجهل ، مع أن المسألة فى حد ذاتها لا تحتاج إلى حرب وقتال . . بل لا تحتاج منهم إلا أن يأمروا بالبر ولا ينسوا أنفسهم . . هذا هو كل ما فى الأمر . . إنهم هم الذين لديهم حل العقدة . .

فليبسطوا أيديهم . . يجدون الأعداء الثلاثة قد انكمشت وفرت هاربة . . وليعملوا بقول القائل[1] :

« أما لو تناصف الناس فأخذ من الغنى حق الفقير واستنقذت الكنوز من خزائن اللؤماء ، وتلوفيت الأموال من أكف السفهاء ، إذاً فأى خير يعم الأرجاء ، ويجلل الأنحاء ، ويطبق الآناء . . »

ولكن كيف يتأتى ذلك فى بلد : السفهاء فيها كبراء ، واللؤماء عظماء . . . مسكين هذا البلد ! !

جال كل ذلك بذهنى وأنا أقلب بصرى فى الأزقة الضيقة بين تلك البيوت التى « يمسك بعضها من الذعر بعضا » والتى تفوح منها العفونة ، وتزين جوانبها أكوام القمامة التى أولَم فيها الذباب ولائمه . . . وقد ركدت مياه الغسيل النتنة الآسنة أمام أبوابها . . . وبين كل هذا وذاك مخلوقات صغيرة قد تراكم على أجسادها من الأقذار ، ما جعلها فى غير حاجة إلى كساء . . . وقد اتخذ الذباب من وجوهها مرقدا . . فألفها وألفته . . . ولم تبد منها

---

(١) محمد السباعي فى كتاب « السمر » .

محاولة لطرده . . من فرط ما تعودته .

ووقفت أمام بيت المعلم حنفى . . . البيت الذى ستنقض جدره بعد هنيهات فتخمد تحت أنقاضها الأنفاس وتهشم الضلوع وتتحطم العظام ، وكنت أسائل نفسى وأنا فى طريق إلى البيت : كيف سينهار البيت . ؟ ولكنى لم أكد أبصره حتى ساءلت نفسى : كيف أمكن له أن يتماسك حتى هذه اللحظة ، وكيف لم ينقض على من فيه منذ بضع سنين خلت ؟

وبدأت أفكر فى كيفية إنقاذ المعلم حنفى وآله الكرام ، ووجدت أن المهمة جد شاقة . . . فهى ليست من السهولة كسابقتها . . . إذ كان من المستحيل أن أمنع جدران البيت من الانهيار . . ولم يبق ، والأمر كذلك ، إلا أن أحاول إبعاد المعلم حنفى والست زهرة وأولادهما خارج الدار . . ولم تكن تلك المسألة بالشىء الهيِّن . . وكانت الساعة قد بلغت الثانية إلا ثلثاً كما رأيتها فى جيب الأسطى زينهم الحلاق . . ولم يبق أمامى إلا عشرون دقيقة .

ونظرت إلى الدار المجاورة فوجدت عليها لافتة صغيرة قد كتب عليها « السيد عكاشة العرضحالجى » . . . وفى نفس

اللحظة رأيت عكاشه افندى نفسه ـ إذ لا يمكن أن يكون سواه ـ قد أقبل . . وقد تقوّس ظهره وسقط منظاره على أرنبة أنفه وأمسك بيده مظلة باهتة وبالأخرى حقيبة مطوية .

وتراءى لخاطرى وقتذاك حل موفق . . . فلم يكن علىّ الآن إلا أن أحل محل عكاشه افندى فى جسده ثم أصعد إلى داره فأخط على ورقة بيضاء هذه الكلمات « خطر . . البيت آيل للسقوط . . ممنوع الاقتراب » .

ثم أعلّق الورقة بعد ذلك على البيت المحتضر . . ولا شك أن هذا سيكون خير إنذار لكى يفر المعلم حنفى بزوجته وأولاده قبل أن يطويهم البيت تحت أنقاضه .

وفى لمح البصر انتقلت إلى جسد عكاشه . . أو على الأصح إلى هيكله . . ووضعت روحه فى الكيس ، ثم أخفيت الكيس والعصا وبقية أجهزة الموت فى حافظته الجلدية . . وطرقت الباب .

وفتحت لى زوجته . . وكان أول ما فاهت به هو أن طلبت ثلاثة مليمات لشراء « طرشى » .

وبدا علىّ الارتباك .. إذ لم أعرف لأول وهلة أين يضع عكاشه افندى نقوده ، ولم أدر هل تعوّد أن يعطيها الثلاثة المليمات بسهولة .. أم أنه يرفض فى بعض الأحيان .. ورأيت ألا أثير معها جدلا قد يعوقنى عن كتابة اللافتة وتعليقها . . . فمددت يدى إلى الجيب الداخلى الذى تعوّدت أن أضع فيه النقود فى جاكتتى عندما كنت حياً . . ولكنى وجدت يدى لا تصطدم بشىء . . . فقد كان الجيب بلا قرار . . أى أنه كان على اتصال ببقية أنحاء الجاكتة . . فأخرجت يدى بسرعة ودفعتها فى جيب آخر ، فلم يكن خيراً من السابق . . وظللت أنقل يدى من جيب لآخر وأخرجها بيضاء من غير سوء . . .

وتصبب العرق من جبينى . . والمرأة تحدجنى بنظرات صارمة .

جزاك الله خيراً يا عكاشه افندى ! ! . أين تضع نقودك . . لقد كان البحث عن ثلاثة مليمات فى جيوبك الخاوية أشق من البحث عن الماء فى الصحراء القاحلة الجرداء .

obeikandi.com

وأخيراً ولما يئست من العثور على النقود المطلوبة . . وخشيت أن ينهار البيت على المعلم حنفى ، وأنا واقف أمام المرأة أبحث عن ثلاثة مليمات لشراء «الطرشى» المطلوب . صحت بها متبرما :

— لا ضرورة للطرشى اليوم .

ولم تنبس ببنت شفة ، بل حدجتنى بنظرة ملؤها السخرية والازدراء . . ومدت يدها فى سكون فنزعت الطربوش من فوق رأسى . . ودفعت أصابعها فى جلدته وأخرجت ورقة من فئة الخمسة قروش . . . ثم دفعتنى جانباً وقالت هازئة :

— خير لك أن تبحث عن مخبأ آخر غير جلدة الطربوش . . .

ولم أجبها بكلمة واحدة . . ولعنت فى سرى عكاشه افندى . . والظروف السيئة التى دفعتنى إلى احتلال جسده . . واندفعت إلى إحدى الحجرات فأخرجت من الحقيبة ورقة بيضاء كبيرة وأسرعت بكتابة التحذير المطلوب ، ثم هممت بالخروج حتى أضعها على بيت المعلم

حنفى ... ولكن المرأة اعترضت طريقى وقالت متسائلة فى دهشة :

— إلى أين ؟

ولم يكن لدى من الوقت ما يتسع لمثل هذا التحقيق الذى تنوى عمله ... فقلت لها فى عجلة :

— سأخبرك عند ما أعود .

وحاولت أن أزيحها من طريقى .. ولكن الأمر استعصى علىّ فقد كان جسدها أضخم من أن يحاول زحزحته ذراع كذراع عكاشه افندى الشبيه بعود القصب .. وكانت المرأة من نوع عنيد مشاكس ... فلم أجد بداً من أن أجيبها باختصار عما أنوى فعله حتى أتخلص من لجاجتها فقلت :

— دعينى أمر .. فانى ذاهب إلى بيت المعلم حنفى لأنه على وشك الانهيار .

ورأيت المرأة تنظر إلىّ فى غيظ ثم تنفجر قائلة :

— بيت المعلم حنفى على وشك الانهيـــار ؟ ! ومالك انت .. لعلك قد أصبحت « وابور حريقة » ... أو عربة إسعاف ... أو مصلحة تنظيم ... أم تظن

أنك بجلالة قدرك ستمنعه من الانهيار . . ألم أحذرك مائة مرة ألا تحاول التدخل فيما لا يعنيك . . ألا يكفيك تلك المصائب التى تجلبها لنا بتدخلك فى أمور الناس . . ادخل يا سيدى . . ربنا يهديك .

وتبيّنت فى وجه المرأة ما جعلنى أجزم أنها قد أصرت على منعى من الخروج . . وأدركت أن من العبث أن أحاول إقناعها . . فقد كانت من نوع لا يقتنع . . ولم يكن هناك من الوقت ما أضيعه فى محاولة ذلك الإقناع . . فصممت على استعمال كل الوسائل للنفاذ إلى الخارج . . وكانت المرأة تقف على « بسطة » السلم . . وكان من المستحيل علىّ أن أجد لى منفذاً من خلال جسدها . . ولم يكن من الحكمة أن أحاول المجازفة بالنزول من إحدى النوافذ . . إذ كنت أخشى ألا يساعدنى ذلك الجسد الواهن الواهى .

وفجأة خطر لى خاطر عجيب أوحى إلىّ به « ترابزين السلّم » . . لقد تذكرت أنه لم يكن هناك أحب إلىّ فى طفولتى من « الزحلقة » على « الترابزين » . . وأننى كنت

بارعاً فى هذه « اللعبة » غاية البراعة . . فقد كان فى استطاعتى أن أنزل من السطح حتى فناء الدار فى ثوان معدودات . . ولا أذكر أننى استعملت السلم فى طفولتى إلا عند ما كنت أنزل مع كبار العائلة . . وحتى فى هذه الأحوال كنت أتعمد التأخير عنهم . . ثم ألحقهم بوسيلتى الخاصة .

ووجدت أن الزحلقة على « الترابزين » . . هى خير وسيلة أتخلص بها من المرأة الحمقاء . . حقيقة قد تكون وسيلة صبيانية . . وقد يكون بها ما لا يتفق وهيبة عكاشه افندى ووقاره وكبر سنه . . ولكن المسألة الآن ليست مسألة هيبة ووقار . . إن المسألة مسألة حياة أو موت .

ولم أضيع ثانية واحدة . . فقد امتطيت « الترابزين » وأخذت فى الانزلاق عليه بسرعة البرق . . وبعد لحظات كنت أقف فى فناء الدار . . ورأيت المرأة تحملق من أعلى السلم . . وتضرب صدرها بيدها . . فاغرة من الدهشة فاها وهى تصيح :

— « يا عيب الشوم » . . لقد جُنَّ الرجل .

ثم رأيت بجانبي بضعة أطفال يصفقون طرباً ويهتفون :

« يعيش عكاشه افندى » .

ولم يكن هناك وقت لتلقى آيات الاستحسان أو عبارات الاستهجان . . فاندفعت إلى الخارج مسرعاً إلى بيت المعلم حنفى . . واقتربت من الباب بعد أن خطفت « شاكوشاً » ومسماراً من الأسطى بيومى « العتيق » الذى قد جلس بصندوقه وجرداله الذى « نَقَعَ » فيه الأحذية والجلود القديمة .

ورفعت « الشاكوش » وبدأت أثبت الورقة على الباب . . ولكنى لم أكد أدق أول دقة . . حتى أحسست بيد قوية تقبض على عنقى . . والتفت ورائى فأبصرت بوجه لم أشك لحظة فى أن صاحبه لابد أن يكون . . المعلم حنفى نفسه .

لقد أبصرت بوجه قد لفت رأسه « بلاسة » وبدا تحت حاجبيه الكثيفين عينان بهما حَوَلٌ شديد . . فما يكاد يشعر المرء أن الرجل يخاطبه . . ويلى ذلك شارب هو

أبرز ما فى الوجه كله . . فلا أظننى مبالغاً إذا ما قلت أن الشارب لا يمكن أن يكون قد نبت فى الوجه . . بل لا بد أن يكون الوجه هو الذى نبت حول الشارب . . لأن الرجل لم يكن سوى شارب وحاجبين .

وسمعت الرجل يصيح فى وجهى غاضباً :

— من أنبأك « يا عكاشة النحس » . . أنى أعرض بيتى للإيجار . .

وعلمت أن الرجل لا يعرف القراءة والكتابة . . فحاولت أن أفهمه فى هدوء . . فقلت له :

— إن البيت على وشك الانهيار . . وهذه لافتة لإخلائه وعدم الاقتراب منه حتى لا ينهار على رؤوسكم .

ورأيت هذا القول قد زاد من غضب الرجل ، وأحسست به يهزنى هزاً عنيفاً ويصيح فى حنق :

— ينهار على رأسك انت . . ورأس أهلك . . ١٥ سنه . . وأنا ساكن فى البيت . . وهو أقوى من الأسمنت المسلح . . فتأتى حضرتك الآن

وتقول إنه سينهدم على رأسى . . « ياساتر يارب » . . فال الله ولا فالك .

وجذبنى الرجل بعنف . . ودفعنى دفعة كدت أسقط منها على وجهى .

يا للرجل الجاهل الأحمق . . إنه سيودى بنفسه وأهله . . ترى كيف أقنعه أن البيت سينهار حقاً . . وأنه يجب أن يغادره فى التو واللحظة .

وفى تلك اللحظة بدأ الناس يتكأكأون حولنا . . والمعلم حنفى مستمر فى ضجيجه وصخبه . . وأنا أحاول أن أقسم للناس أن البيت على وشك الانهيار . . فلا أجد منهم إلا الهزء والسخرية . . وأخيراً أبصرت بامرأتى . . أعنى امرأة عكاشه افندى . . تشق الجمع بيديها القويتين وجسدها الهائل . . ثم تصل إلىّ . . فتمسك بتلابيبى وتقبض علىّ من « زمارة رقبتى » . . وتجرنى إلى البيت جراً ورأيت نفسى حبيساً فى الدار . . فأدركت أن عكاشه افندى لن يجدينى بعد ذلك نفعاً . . وندمت على ذلك الوقت الذى أضعته فى جسده . . فغادرته مسرعاً . .

بعد أن أخذت « العدة » من حافظته . . وتركته يتلقى تأنيب امرأته وتقريعها .

ولم يكن أمامى إلا خمس دقائق . . وكان علىّ أن أعمل بمنتهى السرعة . . وكان القوم ما زالوا فى تكأكؤهم أمام الدار . . فخطر لى أن أحتل جسد المعلم حنفى نفسه . . ولكنى خشيت أن أكون بذلك قد هيأت لروحه فرصة مفارقة الجسد . . فتأبى العودة إليه بعد ذلك . . وهكذا قد أكون قد قضيت على نفسى بالسجن فى جسد المعلم حنفى . . لا . . لا . . هذا خاطر أحمق . . يجب أن أبعده عن رأسى .

وبحثت بين القوم عمن أستطيع احتلال جسده لأنقذ المعلم حنفى الجاهل . . هو وزوجته . . بعد أن أخفق عكاشه افندى فى إنقاذه .

ولم يطل بحثى طويلا . . فقد وجدت ضالتى المنشودة . . فى « طقطق » وهو صبى تبدو عليه « الشقاوة والعفرته » . . وسرعان ما هبطت عليه فاحتللت جسده . . . وتسللت من بين القوم ودلفت إلى بيت المعلم حنفى . . وأسرعت

إلى سطح البيت . . وكان قد ملىء بالملابس المغسولة التى قد نشرت لتجف على الحبال . . . فأسرعت بخطف بعضها . . وتعمدت أن أحدث ضجيجاً . . تحس به امرأة المعلم حنفى . . ثم هبطت بسرعة على السلم .

وأحست المرأة بالضجيج وصعدت إلى السطح فاكتشفت نقص الملابس فشق صراخها أجواز الفضاء . . وهبطت على السلم مندفعة بكل قواها وخلفها أولادها . . يتصايحون ويتدافعون . . واندسست بين الجمع بعد أن أخفيت الملابس تحت السلم . . ووقفت أرقب ما سوف يحدث .

يا لله . . . لقد نجحت نجاحاً منقطع النظير . . فقد انطلق ذلك الجمع كله وبينهم المعلم حنفى وامرأته وأولاده يعدون فى الطريق بأقصى قواهم صائحين : حرامى . . حرامى .

وانطلقت معهم . . فإذا بالحى كله يعدو فى شبه مظاهرة وراء اللص الهارب . . وبدأ القوم يتناقلون الخبر . . فإذا بى أسمع . . أن مجرماً أثيماً قد اعتدى على بيت المعلم حنفى . . فذبح امرأته . . وسرق حليها . . فى رابعة النهار وأنه قد فرّ هارباً أمام القوم . . . وسمعت الراوى

يقول إنه رآه بنفسه : رجل طويل يلبس عباءة سوداء ، ويمسك السكين بين أسنانه وينطلق هارباً .

ولم أنبس ببنت شفة . . ولم أخبره أن امرأة المعلم حنفى حية ترزق ، وأنها تعدو مع زوجها وأولادها فى وسط المظاهرة . . فقد كان كل همى هو أن أبعدهم عن البيت . . وقد نجحت فى ذلك أيما نجاح . . فقد أبعد الحى كله عن دورهم .

وفجأة سمع القوم قرقعة وضجة . . . وتلفتوا خلفهم فإذا بيت المعلم حنفى قد انهار . . فأضحى أسفله أعلاه ، وأعلاه أسفله . . واندفع المعلم حنفى إلى عكاشه افندى يحتضنه ويستغفره ويؤكد للناس أن فيه « شيئاً لله » .

obeikandl.com

الفصل السابع

وليمة

لم يكن لدىّ من الوقت ما أضيعه فى سيدى زينهم بعد انهيار البيت ، وبعد أن أنقذت المعلم حنفى وآله الكرام من الموت تحت أنقاضه .. فقد كان علىّ أن أواصل مهمتى فى إنقاذ بقية الأرواح .. فسرعان ما غادرت جسد الصبى « طقطق » .. وألقيت نظرة على الكشف لأرى الروح التالية .. فوجدت صاحبها .. هو جابر بك كيراشو .. وكان المكان فى باب الخلق .. والموعد فى الثانية والنصف عقب وليمة غداء .

ورغم أننى لم أكن فى عجلة من أمرى .. إذ كان أمامى من الزمن ما يقرب من نصف ساعة .. فقد فضّلت أن أذهب دون تلكؤ إلى مقر الروح التالية .. لأننى توقّعت أن تكون عملية إنقاذها أشق كثيراً من سابقتها .. فما أظن محاولة منع السيد « كيراشو » من أن

يميت نفسه بالتُّخمة عقب إفراط شديد فى وليمة غذاء بالمسألة الهيِّنة .. وما كنت أظننى سأستطيع بسهولة أن أمنعه من التهام ما يحلو له على مائدة الطعام بما سيفضى به حتما إلى مصرعه .

ولم تمض بضع ثوان حتى كنت أحلّق فوق البيت المطلوب .. ونفذت من إحدى النوافذ إلى حجرة قد اكتظت بالمدعوين من الأصدقاء والخلّان الذين دعاهم كيراشو بك للاحتفال به بمناسبة الإنعام عليه برتبة البكوية .

وفحصت المدعوين فلم أجد بينهم صاحب الدعوة .. ففضلت أن أنتظره بينهم ، فلقد كان الجمع خليطاً عجيباً يستحقون أن يقضى المرء معهم بعض الوقت .. إذ كانوا حقاً مبعث تسلية ومورد فكاهة .. ولم أستطع أن أدرك البتة سر تلك الصلة .. التى ربطتهم ببعضهم البعض .. فما كان هناك شبه أو تقارب بين أحدهم والآخر .. اللهم إلا ميلهم للهزل وحبهم للمجون ..

حتى استطعت أن أجزم فى النهاية بأنهم جميعاً أولاد حظ وأبناء « نكتة » .

واستطعت أن أفهم من حديثهم أن السيد جابر يمتلك أشهر مطاعم « الكفته » و « الكباب » بالقاهرة . . وأن الرجل عصامى جمع ثروته بعرق جبينه وبمثابرته واجتهاده وإتقانه لصنعته .

وعلمت كذلك من سياق الحديث . . أن الرجل بدأ حياته بائعاً متجولا « للكرشه والسجق والطحال » . . وقد يكون هذا هو سر تسميته بجابر بك كيراشو . . وأنه تدرّج بعد ذلك فاقتنى عربة احتل بها مكاناً مختاراً على ناصية « حارة السيدة » . . وقد اشتهر وقتذاك بشواء « الكفتة » .

ورأيت أحد الحاضرين يهز رأسه ويقول كأنما قد أشجته الذكرى :

ـــ رحم الله ذلك الزمن . . لقد كنت أقف وقتذاك فى شارع مراسينا فيصل إلى أنفى عبير الشواء من حارة السيدة . . فكأنه والله نسيم الصبا .

وعلمت أيضاً أن الرجل قد فتح الله عليه بعد ذلك فاستبدل بعربته « مصمتاً » متواضع فى شارع السد البرانى . . وقد ذاع صيته من ذلك الوقت وطبقت شهرته الآفاق بفضل ما لديه من أجود أنواع « الكوارع » . . وتدرّج به الأمر فأنشأ عدة مطاعم وأخذت ثروته فى الازدياد منذ ذلك الحين حتى أضحى من كبار الأثرياء .

ثم تبرّع بعد ذلك بمبلغ لا يستهان به لمشروع « الجوارب » . . وهو مشروع فكر فيه بعض من « ناضجى العقول » . . وما أكثرهم فى هذا البلد التعس . . فقد وجدوا أن مشروع الحفاء . . أو على الأصح مشروع « الجزم » . . قد نفع وأفاد . . وأن أفراد الشعب الذين يتضورون جوعاً . . قد اكتمل هندامهم بلبس الأحذية . . ولم يبق عليهم إلا ارتداء الجوارب . . ففكروا فى مشروع الجوارب . . وجمع التبرعات والاكتتابات . . ممن يبغون وجه الألقاب ، لا وجه الله . . وهكذا سنحت الفرصة للسيد كيراشو . . فأقبل على اغتنامها ، وبين عشية وضحاها . . وجد نفسه كيراشو بك . .

وشرد ذهنى وتذكّرت مصيبة هذا البلد بمشاريعه المغرضة المرتجلة . . فما من عمل أقيم إلا كان المقصود به غير حقيقته . . وما من مشروع إلا كان أساسه الخداع والتهريج .

وطال بى الجلوس بين القوم . . والسيد كيراشو . ـ ذو التاريخ الشهى الحافل بالكباب والكفتة والكوارع ـ لم يظهر فى الأفق بعد . . وخشيت إن ظللت على انتظارى بين الجمع . . أن أفاجأ به على المائدة مرة واحدة . . فلا أستطيع أن أتدبر أمرى . . أو أمنعه من ارتكاب جريمة الانتحار التى هو مقدم عليها . . فلم أر خيراً من أن أترك الحجرة لأبحث عنه فى أنحاء الدار .

وبعد جولة سريعة فى الحجرات . . عثرت عليه أخيراً . . وقد انهمك انهماكا تاماً فى المطبخ ، واستغرق بكليته فى مراقبة أسياخ « الكفتة » . . وتقليبها فوق جمرات النار .

وهنا وجدتنى أنعم البصر ملياً فى صاحب العزة . .

فقد كان فى الواقع يستحق إنعام البصر . . ويستدعى التأمل والتمعن .

وكما وصفت المعلم حنفى من قبل فقلت عنه إنه ليس أكثر من حواجب وشوارب ، أستطيع أن أقول دون أن أخشى الزلل : إن صاحبى الجديد لم يكن أكثر من بطون وبطون . . فقد أبصرت به ، وقد وقف أمام الموقد ملاصقاً له ، وبالرغم من ذلك فقد كان بينهما مسافة تبلغ المتر والنصف قد شغلت بشىء — أشك كثيراً فى أنه بطن واحد — وقد ارتدى القفطان ولف وسطه — أو على الأصح محيطه — بحزام من الكشمير . . وكان يمد ذراعه بمروحة من الريش ، يحركها بيده يمنة ويسرة ليستزيد من نيران الموقد . . وكانت المروحة لا تكاد تصل إلى منتصف بطنه فلا يصل من ريحها إلى الموقد إلا نسمة خفيفة .

والتففت حول الرجل . . وتأملت فى وجهه . . فرأيت فكيه فى حركة دائبة وعمل مستمر . . لايكفان لحظة عن المضغ والبلع . . حتى خيّل إليه أنه يتمتع

بخاصة الاجترار . . ولم تكن تفاصيل وجهه بالشيء الجلى الواضح . . إذ لم يكن له أنف محدود أو عينين مميزتين . . بل كانت كل تقاطيعه ممزوجة بعضها ببعض ، حتى لكأن وجهه طبق من البطاطس « البيريه » أو قصعة من « العصيدة » . . وكان كل ما استطعت تمييزه هو خطان يدلان على أن هنا توجد عينان . . وفتحتين يندفع منهما وإليهما هواء يدلان على أنهما طاقتا أنف إنسان يتنفس .

ورأيت الرجل يمد يده بجواره ثم يدفع شيئاً فى فمه ليتابع المضغ . . . فلم أشك حينذاك أن عملية الانتحار بالأكل قد بدأت منذ مدة غير يسيرة . . وأنه لم يكن من الحكمة قط أن أقضى ذلك الوقت الذى قضيته بين المدعوين . . تاركا الضحية تزدرد وتلتهم . . دون أن أحاول أن أبدأ عملى فى إنقاذها من شر نفسها .

ولم تمض لحظات حتى رأيت الرجل يغادر المطبخ وأبصرت بالمدعوين يغادرون حجرتهم ليتخذوا مقاعدهم حول المائدة التى احتل فيها السيد كيراشو مكان الصدارة .

وعلت فى الجو ضحكات . . وتطايرت نكات . . وبدأت عيون القوم تفحص الأصناف الشهية التى قد حفلت بها المائدة . . وقد بدت حائرة غير مستقرة . . وشمّر قائد المائدة عن ساعد الجد . . ورفع أكمام قفطانه الواسعة حتى المرفقين . . وبدا عليه كأنه يوشك أن يخوض غمار معركة حامية الوطيس .

وكنت أعلم فى نفسى أن الوليمة فعلا لا تعدو عن أن تكون معركة . . وأنى لو لم أسرع فى التدخل لكان الرجل أول ضحاياها .

وبدأت المعمعة بأن مدّ الرجل يده إلى فخذ ضأن لامع متورد قد علا « قارباً » من الأرز المخلوط بالزبيب والصنوبر . . . وهنا أحسست أن المعركة ستكون من النوع الخاطف ، وإنى لا بد أن أسرع فى الهجوم المضاد . . وأن أكون سريعاً فى عملى وإلا هزمنى الرجل فصرع نفسه .

وهبطت فى التو إلى أول جسد يجلس بجواره . . ولم يكد يستقر بى المقام حتى مددت يدى فخطفت فخذ

الضأن من يد الرجل .. وأسرعت بوضعه بين فكى قائلا :
« إنى أحب الضأن » .

ونظر إلىّ السيد كيراشو بدهشة وأصرّ على أسنانه فقد أذهله أن يرتكب أحد ضيوفه مثل هذا العمل الشائن . ورأيته يهم باستعادة الفخذ ، ولكنه تذكر أن واجب الضيافة يحتم عليه أن يكون كريماً مع ضيوفه .. فكتم غيظه فى صدره .. وافتر ثغره عن ابتسامة زائفة مصطنعة ليس بها من الابتسام شىء سوى أنها أظهرت أنيابه وأسنانه . . وأجبته أنا بابتسامة مثلها . . . وعاودت الإطباق بأسنانى على قطعة اللحم .

وهنا يجب علىّ أن أعترف أنى لم أكن قط حكيما عند ما حاولت أن أتبع ذلك المسلك الذى اتبعته فى إنقاذ الرجل . . لأنى ما كدت أحل فى الجسد وأدفع أسنانى فى قطعة اللحم .. حتى شعرت بإرادتى تضعف وعاودتنى عادتى القديمة وهى « النهم والشراهة » التى كانت تلازمنى فى حياتى كلما جلست إلى مائدة طعام فى وليمة من الولائم .

أجل ، لقد عدت إلى سابق عهدى عندما كانت جدتى تتهمنى بأننى « آكل فى آخر زادى » وعندما كنت أتبع قول الرسول : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » . . ولكن بطريقة أقسم أنها لم تكن تخطر قط ببال الرسول عندما قال حديثه . . لقد كنت لا آكل حتى أجوع . . وأنا سريع الجوع جداً . . بل إننى فى الواقع دائم الجوع . . لأننى - كالشطرة الثانية من الحديث - إذا أكلت لا أشبع . . . ليس لأننى أكف عن الطعام قبل أن أشبع . . . بل لأننى لا أشبع مهما أكلت .

وإنى لأذكر كيف كنا — أنا وأخ لى وابن عم — خطراً على أى دار ندعى للطعام فيها . . فقد كنا نصيب أهله بفجيعة ووجيعة . . وخاصة عند ما تنقلب المسألة بيننا إلى منافسة ومسابقة . . فالويل عندئذ لأصحاب الدار .

ولم يكن هناك ما يستطيع أن يقيم أودى ويصلب عودى ويجعلنى أستطيع الصبر حتى الغداء إلا « أكلة

فول مدمس ، أتناولها « على الريق » عند الاستيقاظ . . فبهذه الأكلة يمكننى أن أؤدى أعمالى بعد ذلك وأن أروح وأجىء دون أن أحس بألم الجوع . . إلا قبيل الساعة الثانية عند ما يحين وقت الغداء .

أجل . . إننى ما كنت أعتبر الفطور فطوراً . . إلا إذا كان فولا . . وأذكر كيف ذهبت لزيارة جدتى وأنا طفل فى السابعة ، فبت عندها ليلة الجمعة واستيقظت فى الصباح فأجلستنى إلى المائدة . . ورصت عليها — محاولة المبالغة فى إكرامى ، فقد كانت ، رحمة الله عليها ، شديدة الحب لى — أقول رصت عليها حوالى عشرة أصناف من مختلف أنواع الجبن والزيتون والزبد والعسل والمربى . . وجلست ترقبنى وأنا آكل . . حتى بيت عليها جميعاً . . فسألتنى أن أقوم لأغسل يدى . .

ولكنى نظرت إليها ببساطة وقلت متسائلا :

— أين الفطار ؟ !

— الفطار ؟ ؟ ! ! وما الذى التهمته فى جوفك الآن ؟

ولم أعن بالإجابة عليها ، بل قلت فى إصرار :

— أين الفول ؟

ونظرت إلىّ جدتى وهزّت رأسها آسفة . . ولكنى لم أهتم كثيراً بنظراتها ولا بأسفها ، بل أصررت ألا أترك المائدة إلا بعد تناول « طبق الفول » . . وقد كان .

وأذكر كذلك كيف كنت وزميلاً نتنافس على بطولة الأكل . . وكيف كنا نحن الاثنان نستعد لدخول مباراة للملاكمة . . وكان الممرّن يحاول جهده أن يجعلنا نتبع (رجيما) خاصاً فى الطعام حتى لا يزيد وزننا ، وكان يصر على ألا نتناول طعام العشاء . وكنا نذهب أمامه فعلا لكى ننام . . ولكن لا يكاد الليل ينتصف حتى نقفز من فراشنا فنهجم على المطبخ ونأتى على كل ما به .

وقد حدث مرة أننى ذهبت للنوم قبل صاحبى . . وأخذت أتقلّب على الفراش برهة دون أن يغمض لى جفن . . وبعد لحظات رأيت صاحبى يتسلل إلى الحجرة ويتجه إلى فراشه فى سكون ، دون أن يحاول إضاءة الحجرة . . فدهشت فى نفسى إذ لم يتعوّد أحدنا أن يحترم نوم الآخر . . بل لا يكاد أحدنا يدخل الحجرة

ويجد الآخر راقداً ، حتى يتفنن فى إحداث الضجيج لإقلاق راحة زميله . . وإنى لأذكر كيف دخلت عليه ذات مرة فوجدته يغط فى نومه ففتحت الراديو بأعلى صوته ، وكانت تذاع وقتئذ أسطوانة « يا بختها يا بختها ضربتها طقت منها » ، وزعمت حينذاك أننى لا أستطيع النوم إلا على نغمات الشعر والموسيقى ! !

أقول إنى دهشت لذلك الهدوء الذى أقبل به على فراشه . . وقلت فى نفسى إن فى الأمر سراً . . ورأيته قد وضع لفافة على الفراش ثم خرج من الحجرة . . وقفزت من فراشى وفحصت اللفافة فاذا بها رغيف ملىء بالكباب . . فأسرعت بوضعه تحت مخدتى ، وعاودت النوم فى سكون .

وعاد صاحبى ومعه كوب من الماء ، وأقبل على فراشه يتحسسه فلم يجد اللفافة ، وبحث هنا وهناك حتى أعياه البحث . . وأخيراً أضاء النور . . ثم نظر إلىّ وقال فى صوت يائس ملىء بالألم :

ـــ لا داعى لادعائك النوم . . اعطنى ولو شقه . . على الأقل .

وكان ممرن الملاكمة يدهشه أننا رغم المجهود الذى نبذله فى التمرين ، ورغم ذلك الرجيم الذى نسير عليه . . لا يزال وزننا فى ازدياد . . وأخيراً قرب ميعاد المباراة . . فأصرّ على أن نعدو مسافة طويلة حتى ينقص وزننا ، إلى القدر المطلوب . . وبدأنا العدو . . والممرّن وراءنا من كوبرى القبة حتى الجبل الأحمر ، ثم عدنا إلى العباسية ، وهناك وقفنا نستريح برهة . . وغفل عنا الممرن بضع لحظات . . فوجدنا أحد باعة اليوسفى فوقفنا نتسلى أمامه . . فأكل كل منا ثلاثين يوسفيه فى غفلة من الممرن .

وعندما عدنا وحاول الممرن أن يزننا بعد ذلك . . كاد يصعق عندما وجد أن وزننا قد زاد .

وأذكر مرة أخرى أننا ذهبنا للراحة عقب الغداء واستلقى صاحبى على الفراش وتمددت أنا على أريكة أتصفح إحدى المجلات . . وغفلت لحظة . . ثم فتحت عيناى فلم أجد صاحبى فى فراشه . . فأصابتنى دهشة إذ كان من نوع نؤوم مكسال لا يكاد رأسه يلامس الوسادة حتى يروح فى سبات عميق .

ونهضت للبحث عنه فقد كنت دائماً أوجس منه خيفة عندما أراه يشذ عن عادة له . . وبحثت عنه فى بقية الحجرات فلم أجده . . فزاد خوفى إذ كنت أعرف فيه السير أثناء نومه ، فخشيت أن يكون قد حمله سيره إلى إحدى الشرفات أو النوافذ فألقى بنفسه منها . . وأسرعت أطل برأسى من النافذة على حديقة الدار وبنفسى لوعة من رؤية صاحبى أشلاء مهشمة وأعضاء محطمة .

وصدمتنى رؤيته . . لا طريح الأرض غريقاً فى دمائه ولا سائراً فى أثنـــاء نومه . . ولا حتى مضطجعاً فى ركن ظليل من الحديقة يستمتع بنسمة هادئة عليلة . . كلا لم أره فى أى وضع من الأوضاع التى يحتمل أن يرى بها أى مخلوق من مخلوقات الله المتمتعين بشىء من قواهم العقلية . . بل رأيته يعدو فى الحديقة بأقصى سرعة ثم يثب بعنف إلى أعلى ويقفز إلى الأشجار ويهبط منها كأنه قرد فى حديقة حيوانات . . ولم أشك عندئذ فى أن صاحبى قد فقد عقله وأنه قد أصابه مس من جنون . . وخطر لى أنه قد يكون فى ذلك العدو والقفز الجنونى

ما زال مستغرقاً فى نومه.. وأنه لا يحس بما يفعل . . وخشيت أن يقع من فوق شجرة فتدق عنقه دون أن يدرى . . فصحت به من النافذة لأوقظه .

ورفع إلىّ بصره متسائلا عما أريد وهو ما زال منهمكا فى أعماله العنيفة . . كأنه يخشى أن تضيع منه بضع دقائق فى غير عدو ولا وثب . . وصحت به :

ـــ أجننت ؟ ! ! فيم هذا الجرى والقفز ، والجن قد أوت إلى مضاجعها فى هذا الهجير ؟

ـــ خير لك أن تنزل فتفعل كما أفعل . . وإلا ندمت ولات ساعة مندم .

ـــ أنا أنزل فأفعل كما تفعل ؟ ! يا للمجنون . . أأترك الفراش . . وأنزل للعدو والوثب فى هذه الشمس المحرقة . . دون أى سبب أو داع .

وأجابنى ساخراً وهو لا يكف عن حركاته العنيفة :

ـــ دون أى سبب أو داع ؟ ! لعلك قد نسيت حفلة الشاى التى دعينا إلى الذهاب إليها فى الساعة الخامسة .

وهززت رأسى متسائلا :

— وما دخل ذلك فى حفلة الشاى ؟ .

— يا حضرة الأحمق . . هـذه عمليـة هضم . . أتريد أن نذهب إلى حفلة الشاى وما زال طعام الغذاء مكدساً فى جوفنا فننظر إلى الفطائر والحلوى ملومين محسورين .

يا للخبيث ! ! إذاً فهذا هو السر ! !

ولم أرد أن أتقهقر أمامه بمثل هـذه السرعة . . فأعترف له بأننى أحمق وأنه الذكى الفطن . . فنظرت إليه مستسخفاً إياه ، وقلت له بلهجة رثاء :

— مسكين . . ربنا يشفيك ! !

ودخلت الحجرة متصنعاً العقل والرزانة . . وتمددت على الأريكة وأمسكت بالمجلة أحاول القراءة . . ولـكن ذهنى كان أبعـد ما يـكون عن الرغبة فى القراءة . . فقد كان منهمكا فى التفكير فى صاحبى الذى لم يـكف بعد عن عدوه ووثبـه . . أجل . . ما من شك فى أنه أكثر حكمة منى وأصوب رأياً . . فهذا الوثب والعدو سيؤدى به فى نهـاية الأمر إلى أن يهضم تماماً كل ما فى جوفه ، فيذهب إلى الشاى وهو ماضى العزم

مشحوذ الهمة بمعدة خاوية ترحب بكل ما يلقى إليها من (جاتوه، وبتى فور).

وقارنت بينه وبينى، فرأيتنى فى معمعة الشاى أشبه بجندى جريح فى معمعة قتال، وتذكرت فى ذلك الوقت أن أحد ملوك فرنسا كان نهماً أكولا، وأنه كان شديد الولوع بالطعام إلى حد اعتباره متعته الأولى فى الحياة.. وكان أكثر ما يحزنه أن الله لم يخلق له إلا معدة واحدة محدودة الحجم.. وأنه لا يستطيع أن يدفع فيها إلا كمية محدودة من الطعام فى وجبات محدودة، وأوقات معينة.. ولذلك فهو لا يستطيع مباشرة متعة الأكل إلا على نطاق ضيق كبقية خلق الله الذين ليسوا ملوكا.

واستمر الملك متبرماً من عدم قدرته على الاستمتاع بعملية الأكل كلما شاء ووقتما أراد.. حتى اهتدى إلى طريقة عجيبة.. وهى أن يصنع له مقيأة.. فلا يكاد يملأ بطنه بأشهى الطعام وأطيب الشراب، ويستمتع بأقصى ما تستطيع معدته تحمله من أكداس الغذاء.. حتى يذهب إلى المقيأة فيفرغ فيها ما حملته معدته..

ثم يستريح برهة . . ليعاود الاستمتاع بعملية الملء مرة أخرى . . وهكذا دواليك .

ولم يطل بى التفكير . . حتى قفزت من مكانى أعدو إلى الحديقة . . فأقفز وأتواثب . . كما كان يفعل صاحبي الذى اتهمته منذ لحظات بالجنون فما كنت خيراً منه . . أو خيراً من ملك فرنسا .

هذه أقاصيص لم يكن من سردها بد ، حتى أعلل ذلك الضعف الذى أصابنى عند ما حللت فى الجسد . . ودفعت بأسنانى فى قطعة اللحم . . فقد رأيتنى أعود إلى قديم ولوعى بالموائد والولائم ، ورأيتنى أسبح ببصرى بين الأطباق الحافلة بالأطعمة الشهية . . وأمد يدى فأختطف طبقاً من « سلاطة الطحينة » التى كنت مشغوفاً بها فى حياتى .

وهكذا رأيت الطعام يكاد ينسينى واجبى الأول ، وهو إنقاذ الرجل من الانتحار . . إذ مد يده إلى « صينية رقاق » فطواها طيتين وقذف بها فى حلقه دون مضغ حتى لقد خيّل إلىّ أنى أكاد أسمع صوت ارتطامها بقرار معدته .

ورأيت الرجل قد بدأت أنفاسه تتلاحق . . وجفونه تتثاقل ، وأطرافه تتراخى ، فأصابتنى رجفة . . لعنة الله علىّ . . لقد كدت أترك الرجل يقتل نفسه .

وهنا لم يكن بد من العمل السريع فتركت الجسد الذى حللت فيه . . وأخذت أفكر بسرعة . . لقد كان من العبث أن أحاول الدخول فى أى جسد آخر . . فما من شك أنى سأندفع مرة أخرى إلى التهام الطعام وأنسى الرجل . . وفى هذه المرة لا شك أنه سيلقى حتفه .

ونظرت حولى فى حيرة ، فوجدت فى أسفل المائدة قطاً كان الرجل يدلله ويلقى إليه من آن لآخر ببعض الفتات فهبطت إليه فى سرعة البرق وحللت فى جسده .

وفزع القط فى بادىء الأمر . . ولكنى أنبأته أن الاحتلال لن يكون إلا لبضع دقائق . . ولم تكد روحى تستقر فى الجسد الصغير حتى أسرعت إلى طرف المائدة فأمسكت بفمى حافة المفرش المدلى على الأرض وجذبته جذبة عنيفة فهوى بما فيه من صحاف وأكواب

وأصاب رشاش الطعام ثياب المدعوين . . فقفزوا من أماكنهم حانقين صاخبين .

ونظرت إلى كيراشو بك فرأيته قد تمدد فى مقعده لا يستطيع الحركة . . وكانت الضجة قد أعادت إليه بعض صوابه . . ولكنه ما زال فى نصف غيبوبة . . فقفزت إليه ، وتوسدت ساقه . . وخطر لى أن أجرب معه طريقة « الزغزغة » فلعلها تفيد فى « نعنشته » بعض الشىء . . فبدأت أعبث بأظافرى عبثاً خفيفاً فوق بطنه الكروية . . فسمعت منه ضحكة خافتة واهتز جسده هزة خفيفة . . ولكنه عاد إلى السكون مرة أخرى . . فعدت إلى « الزغزغة » ، فقد كان الرجل شديد « الغيرة » من بطنه . . وواصل الرجل الضحك ، واستمر جسده فى الاهتزاز فشجعنى ذلك على الاستمرار . . وبدأ الرجل يقهقه ويتمايل على مقعده ويحاول أن يمد يده ليبعدنى عن بطنه . . ولكنه لم يستطع أن يصل إلىّ . . وزادت قهقهة الرجل . . وبدأ القوم يشاركونه الضحك والقهقهة .

وواصلت أنا عملية « الزغزغة » بجد واجتهاد ، حتى أحسست بجسد الرجل يكاد ينفجر .. فتركته خشية أن أكون قد أنقذته من الموت شبعاً . . لكى أميته من الضحك .

وتركت الجسد الصغير .. وانطلقت لأنقذ الروح التالية .

obeikandl.com

الفصل الثامن

محمود افندى الفنط

نحن الآن فى « جنينة قاميش » أو « ناميش » باللغة الدارجة . . وليسمح لى القارىء أن أتريث عندها لحظات وليتحمل منى ذلك الملل الذى قد أصيبه به إذا ما أطلت الحديث عن « جنينة قاميش » . . فإن لها علىّ حقاً . . فقد كانت لى مرتع الصبا . . ومراح الطفولة اللاهية العابثة . . . فلا أظن القارىء يحرمنى من أن أهبها بضع كلمات . . أو أن أحييها بقول الشاعر « جادك الغيث إذا الغيث هما » . . فهى بقعة من الأرض عزيزة على نفسى . . حبيبة إلى قلبى . . وقد ينسى المرء كل مكان إلا مرتع طفولته . . وموطن حبه . . أجل :

قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

ولاح لى ميدان السيدة وقد اختلط فيه الحابل بالنابل واختلطت فيه شتى الأصوات المختلفة المتناقضة . . رنين طاسات

« العرقسوس » برنين جرس الترام يقرعه السائق من حين لآخر . . وأصوات باعة « مشابك الغسيل » و « إبر وابور الجاز » بأصوات باعة الجرائد يعرضون الأهرام بسبعة مليمات فقط .

ولاحت لى مدرسة محمد على فى أول شارع مراسينا ، فساقنى الحنين لأن أجول فيها جولة . . ونفذت إلى الداخل ووقع بصرى على الجرس الكبير . . فتذكرت « عم عفيفى » قارع الجرس . . بمشيته البطيئة المتثاقلة . . وعصاه التى يتوكأ عليها ، والتى قد وضع فى أسفلها مسماراً يلتقط به الأوراق الملقاة فى طريقه دون أن يكلف نفسه أية مشقة أو عناء ، فكأنه عربة كنس .

وأبصرت بملعب الكرة المثلث . . وتذكرت أبطال محمد على فى لعبة الكرة . . أبو السعود كاسب ، وبألز ، والكسار ، وسعيد خليل (هذا الأخير أبصرته قبل موتى بضع مرات ممثلا على الشاشة البيضاء ، وفى الفرقة القومية) .

ثم تذكرت أيام الإضراب عندما كنا نقف فى الفناء ونهتف : « عايزين نخرج » والباب أمامنا مفتوح على مصراعيه ،

ولا أحد هنالك يمنعنا من الخروج . . ومع ذلك لا نخرج . . مكتفين بإعلان رغبتنا فى الخروج حتى يدق الجرس فنساق إلى الفصول .

ونفذت من الباب الخلفى إلى شارع سلامه . . فتذكرت بائع السميط والساندوتش بوجهه الأسمر الضاحك ، وصوته الرنان يصيح من آن لآخر : « هنا المهم يا بيه » ، وتذكرت بائع « البسبوسة » وطرقاته المنتظمة بسكينه فوق الصينية المستديرة ، وبائع الصحف الذى لا يتحرك من مكانه ولا يقول إلا : « سياسة ، وأهرام . . سياسة » .

وهبطت أخيراً إلى جنينة قاميش . . فإذا بى أرى الشوارع قد ضاقت بعد أن كنت أراها متسعة رحبة الأرجاء . . وإذا بذلك الميدان الذى كنا نتخذه ميداناً للعب الكرة . . والذى كان يخيل إلىّ وقتئذ أنه أوسع من ميدان عابدين . . قد بدا فى ضيق عجيب .

وأبصرت بدارنا القديمة . . وبدار أخرى على قيد خطوات منها . . فأحسست بالفؤاد قد هفا . . والقلب قد شدا وترنم . . « وما حب الديار شغلن قلبى » . .

ولكن حب من كان يسكنها فى أيام خلت ، وزمن مضى وغبر .

تذكرت « ملكه » التى كانت أول من أحسست نحوها بحب . . والتى لم تحس هى لحظة . . لا بحبى ، ولا بوجودى . . والتى كانت عندى فى لحظة من لحظات العمر كل شىء . . وما زدت أنا عندها قط عن لاشىء . . لقد كنت لديها كالهواء أو كالفراغ . . ثم ماتت وقتذاك . . وهى صبية نضرة لينة . . ولم أحزن على موتها كما يجب أن يحزن عاشق على موت حبيبته . . لأنها كانت عندى بمثابة شىء رمزى . . فما كان موتها ليحرمنى من شىء كنت أتمتع به فى حياتها . . على النقيض . . لقد كنت أشعر أنى أستطيع أن أحبها وهى ميتة دون أن يشاركنى فيها أحد من الأحياء . . وكنت أريد أن أضرب لها — أو لروحها — مثلا . . أننى على إنكارها إياى وإهمالها وجودى أحفظ للعهد وأبقى على الحب من غيرى ممن كانت تمنحهم ما تبخل به علىّ ، وتهبهم ما تحرمنى منه .

obeikandl.com

ولكن ما لنا ولتلك الذكريات الآن . . لكأنى سأخرج عن الموضوع ، لأكتب حياة قلبي ، كما كتب « الصاوى » حياة قلبه . . عجباً لك أيها القلب تأبى إلا أن تحشر نفسك فى كل مقام . . مهلا أيها القلب . . فما المقام مقامك ، ولا المجال مجالك . . ألا تستطيع الصبر ؟ من يدرى . . فقد تسنح لك الفرصة ، لتقص حياتك كاملة . . فى كتاب خاص بك . . تسميه مثلا : « مدمن حب » .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة ولم تزل أمامى فسحة من الوقت ، فقد كان موعد قبض الروح التالية هو الساعة الرابعة . . فقلت لنفسى : أجول جولة بين ربوع الماضى حتى يحين الموعد . . ودلفت فى إحدى الحارات فرأيت صبية قد تكأكئوا حول كرة يحاولون نفخها بمنفاخ صغير . . فتذكرت فى التو « تيم الأسد المرعب بجنينة ناميش » وقلت لنفسى : إن الإنسان لا يتغير فقد خيّل إلىّ أنى أرى نفس المنظر الذى كنت أراه منذ عشرات السنين . . حتى لقد كدت أبصر نفسى بين

هؤلاء الصبية . . من فرط ما بيننا وبينهم من شبه . . ووقفت أرقبهم حتى انتهوا من نفخ الكرة . . ثم بدأوا يقسمون أنفسهم إلى فريقين ، وكان البعض منهم يرتدون الأحذية والبعض لا يرتدون أكثر من « القباقيب » والشباشب . . ورأيت مشكلة قد قامت بينهم — تماماً كتلك المشكلة التى كانت تقوم بيننا عندما كنا فى مثل سنهم — فقد كان حفاة الأقدام يخشون على أقدامهم من بطش ذوى الأحذية . . وبعد أن تشاور الصبية فيما بينهم لحظة . . رأيت ذوى الأحذية قد جلسوا على الأرض وخلعوا نعالهم ووضعوها على الرصيف وأخذوا كلهم فى اللعب حفاة . . وقلت لنفسى : « لتحيا الديمقراطية » ، وخشيت أن أقول : « الشيوعية » حتى لا يقبض علىّ .

ووقفت أتسلى بمشاهدة اللعب . . فتذكرت حينذاك حادثة طريفة وقعت لنا ذات مرة فى نفس الحارة . . وقد انهمكنا فى اللعب تماماً كهؤلاء الصبية .

كنا قد بدأنا اللعب . . وكان يوجد فى نهاية الحارة

صبي بقال « ملحوس » يدعى « أحمد البطل » . . وكان من أهم صفات أحمد البطل هـذا . . أنه من غواة لعب الكرة . . وكثيراً ما كان يترك الحانوت ليقف حارس مرمى . . وفى ذلك اليوم مرّ بنا أحمد البطل . . وعلى كتفه قفص من العنب يحمله إلى الحانوت . . واستهواه اللعب . . فوقف يشاهده . . ويخيّل إلىّ أن « الماتش » كان « حامياً » . . لأن صاحبنا اشتد انسجامه حتى انتهى الأمر به بعد لحظات إلى أن يترك الرصيف وينزل بين اللاعبين وقد حمل قفص العنب ليعلن أنه يريد اللعب .

وأنبأناه بالحسنى أنه لا محل له لأن الفريقين كاملان . . ولكنه أصر على اللعب . . ولما كنا نجد فيه مادة للتسلية والعبث . . فقد طلبنا منه أن يحضر زميلا له حتى نستطيع أن نضع كلاًّ منهما فى فريق .

ويبدو أنه لم يكن هناك أسهل عليه من إيجاد هذا الزميل . . لأنه سرعان ما تطوع بائع « بطاطة » كان يقف على مقربة منا لأن يكون هو الزميل المطلوب .

ووقف كل منهما فى مرمى أحد الفريقين . . ووضع

أحمد البطل قفص العنب على سور بجوار مرماه . . ثم انهمك فى اللعب .

أجل . . لقد كان انهماكه فى اللعب شديداً . . حتى إنه لم يشعر قط بنا ونحن نتناوب التسلل لكى يأخذ كل منا نصيبه من قفص العنب . . وأخيراً انتهى اللعب . . وانتهى العنب .

وذهب صاحبنا ليحمل قفصه . . فوجده فارغاً . ووقفنا نحن نتساءل وقد ملأتنا الدهشة : أين ذهب العنب . . وأين اللص ؟ .

وبكى البطل وانتحب . . فقد كان لا يدرى كيف يعود إلى صاحب الحانوت بالقفص الفارغ . . ولانت قلوبنا له . . فبدأنا الاكتتاب حتى جمعنا له ثمن العنب المسروق . . ومن ذلك اليوم وهو لا يفكر قط فى لعب الكرة .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف فتركت الصبية وانطلقت إلى الروح التالية . . لصاحبها : محمود افندى الفنط .

وصلت إلى بيته . . ونفذت إلى شقته المتواضعة خلف مطحن الرمالى . . فرأيت صاحبنا فى جلبابه ، وقد عصب رأسه بفوطة ، بعد أن أغرقها بالفازلين استعداداً للخروج .

وتبين لى أن محمود افندى يعيش مع أبويه « أبو محمود » و « أم محمود » . . وأنه يعتبر فى الدار بمثابة رب الدار . . وأنه أعزب لم يتزوج — وربما كان هذا هو المظهر الوحيد الذى يبدو عليه من مظاهر العقل — وكان أهم ما يشغل بال محمود افندى فى هذه الحياة . . أمران : شاربه ، وورق اليانصيب . . وقد يبديه لنا هذا القول فى صورة الرجل التافه . . أو الشاذ . . ولكننا لو نظرنا إلى هذين الشيئين اللذين يشغلان باله . . على أنهما عنده وسيلة لغاية . . لما رأيناه أكثر تفاهة . . أو أكثر شذوذاً من الكثيرين منا .

كانت غاية الرجل فى الحيـــاة شيئين : النساء . . والمـال . . ولا نظن أحداً منا يستطيع ألا يعترف — على الأقل فيما بينه وبين نفسه — أن ذلك هو

غايته . . أو من أهم غاياته . . وكان الرجل من جانبه يعتبر أن وسيلته لإدراك هذه الغاية . . شيئان : شاربه ، وورق اليانصيب . . أما الشارب فلاقتناص النساء ، وأما اليانصيب فلإدراك المال . . وهو فى عدوه وراء غايته . . صبور ملح . . لا يكلّ ولا يملّ . . ولا يعرف معنى للضيق أو التبرم . . فهو يؤمن تماماً بحكمة القول : « على المرء أن يسعى ، وليس عليه إدراك النجاح » . . وهو يرى — تبعاً لذلك — أن يداوم السعى . . وقد اختار لذلك السعى أبسط الوسائل وأهون الطرق . . شاربه واليانصيب .

وعندما وقع بصرى عليه فى تلك اللحظة . . كان قد بدأ عملية الاستعداد للخروج . . وهى عملية لو تعلمون شاقة عسيرة .

بدأ محمود افندى العملية بارتداء الشراب . . وكانت صعوبة ارتداء الشراب كائنة فى كيفية إخفاء تلك « النقر » التى لو حاول معها ارتداء الشراب بالطريقة العادية التى يتبعها بقية خلق الله . . لظهرت تلك « النقر » للأعين

جلية واضحة . . أما هو فقد كانت لديه طريقته الخاصة . . فهو يرتدى الشراب . . ثم يجذبه من طرف أصابعه . . حتى يصبح كعب الشراب فى بطن قدمه . . ثم يثنى الزيادة إلى أسفل . . ويضع قدمه فى الحذاء .

ويبدأ بعد ذلك ربط الحذاء . . ولكنه لا يكاد يجذب الرباط حتى ينقطع . . فيأخذ فى وصله ويضيف عقدة أخرى إلى عشرات العقد التى به .

ثم ينزع الجلباب ويضع القميص على جسده .

وينظر إلى الياقة المنشاة البيضاء . . التى لم تعد بعد بيضاء . . بعد أن علاها ذلك الإطار السميك من العرق والقذارة . . ثم يصيح بأعلى صوته طالباً ياقة أخرى فيجاوبه صوت أمه بأنها عند « المكوجى » . . فيرغى ويزبد ويهدد بالويل والثبور .

وعندما انتهى صاحبنا من ثورته على « المكوجى » بدأ يربط « الكرافتة » وقد احمر وجهه واحتقن .

ووقفت أرقبه وهو منهمك فى ربطها . . حتى انتهى منها . . فوجدته يصيح فجأة :

— الدوباره .

وهنا حدث هرج ومرج فى الدار فكأنما صيحة الرجل لم تكن فى طلب الدوبارة . . بل كانت إنذاراً بغارة . . لقد انطلقت الأم وانطلقت الخادم ينقبون هنا ويبحثون هناك . . فى ارتباك وعجلة .

ورأيتنى أجهد الفكر عبثاً فى محاولة معرفة ما يريد صاحبنا أن يفعله بالدوباره ، أتراه يريد أن يربط بها الشراب ؟ لا أظن ! لأنى أبصر الشراب قد شد إلى ساقه بحالة . . أتراه يرغب فى أن يشد بها البنطلون إلى وسطه بدلا من الحزام ؟ . . لا أظن . . فما من أحد يستطيع أن يحتمل ضغط الدوباره على بطنه ؟ . ولكن من يدرى ؟ .

ولم أجد خيراً من الانتظار . . حتى أرى ما ينوى الرجل فعله . . ولم يطل بى الانتظار حتى أبصرت الخادم قد هرولت إليه بقطعة صغيرة من الدوبار كانت من فرط القصر بحيث طردت من رأسى كل ظن بأن الرجل سيربط بها وسطه . . فقد كانت لا تكفى حتى لربط فأر صغير . . .

ومد إحدى يديه لأعلى فى اتجاه الخادم . . ولم تعطه الخادم الدوبارة . . بل أقبلت بهدوء تضع طرف الدوبارة فى عروتى كم القميص ، لتربط بها « الأسورة » بدلا من أزرار القميص .

وهنا فقط فهمت سر الدوبارة !!

وأخيراً انتهت عملية اللبس وبدا أمامى محمود افندى فى مظهره النهائى . . أبيض الوجه أحمره . . مبروم الشارب منمقه . . قد مال طربوشه الأحمر الفاقع . . ميلا شديداً على أحد حاجبيه . . وأحاطت بعنقه اليـاقة المنشاة . . ذات الإطار السميك من العرق والقـذارة . . وقد بدا فيها كالمخنوق . . ويلى ذلك رباط الرقبة الأحمر الزاهى الذى لم يخل هو الآخر من بقعتين أغلب الظن أنهما آثار « دمعة » . . أو « شوربة » .

وخرج صاحبنا منفوخاً منفوشاً كالديك الرومى . . وهو يهز فى يده مذبته البيضاء . . وقد أطل من جيبه منديل من الحرير الصناعى . . واستقرت فى عروة السترة وردة بيضاء كبيرة الحجم قد شغلت حيزاً كبيراً من صدره .

obeikandi.com

وتبعت الرجل وهو يتبختر ويتمايل . . ولاح لخاطرى المصير الذى ينتظره — أو المفروض أنه ينتظره لولا تدخلى فى الأمر — ووددت لو همست له ببيت أبى العلاء : « خفف الوطأ . . » . . وتساءلت فى نفسى : ترى ماذا يكون شعوره لو أحس بما سيصير إليه بعد هنيهات قصيرة ؟ . . أكان يصر على الانتفاخ والتبختر . . أتراه لو أدرك أنه ميت بعد دقائق معدودات أكان يستمر على « الخنجلة » و « العجب » !

ولم يطل به التبختر حتى قد بدأ يسرع فى مشيته . . إلى حد الهرولة . . أو العدو . . كأنما استلفت نظره شىء هام يريد اللحاق به ، حتى استقر به المقام أخيراً وراء امرأة لفت جسدها فى إغراء بملاءة سوداء . . وسارت تقرع أرض الطريق بكعب « شبشبها » . . قرعات موسيقية منتظمة .

ولم أكن من الغباء بحيث لا أدرك . . أن صاحبة الملاءة لابد وأن تكون الآنسة المحترمة : « تحيه لف » التى ستتسبب فى وفاة الضحية الثالثة . . فاقتربت منها

لأفحصها عن قرب .. فقد كنت أرى فيها أحد أبطال قصتى .

وكان أول ما لفت نظرى ذلك الاعتدال العجيب فى قوامها .. وهنا يجدر بى — قبل أن أصفها — أن أفهم القارىء جيداً .. أنى لست من أنصار « الملايه اللف » ولا المولعين بها .. وأننى ، رغم أن والدى عليه رحمة الله (وعلىّ أنا الآخر رحمته) .. لم يكن يفتنه شىء كصاحبات « الملايات اللف » الساحرات الفاتنات .. إلا أننى لم أرث عنه هذه الصفة .. فما كنت فى حياتى تثيرنى قط امرأة فى ملاءة .. وما كنت أحاول أن أنظر فى وجوههن .. وكنت أدهش من « رخا » الرسام لمحاولته إظهار « بنت البلد » فى تلك الصورة المغرية الفاتنة .. فقد كنت أراها بعيدة تمام البعد عن الحقيقة .. أو هذا على الأقل ما كنت أراه فى حياتى .

أقول هذا حتى لا يظن أحد أن وصفى للفتاة هو من مبالغة معجب مأخوذ « بالملايه اللف » فى حد ذاتها ، أو أننى من القائل مع القائلين : « يا لفّتك فى الملايه حرّمتنى

أهلى » . . ولكن من يدرى . . ربما كان انتقالى إلى العالم الآخر ، قد جعلنى من ذلك النوع القديم المولع بـ « الملايه اللف » .

على أية حال . . إليكم وصفها كما أبصرتها . . ولتقولوا ما شئتم :

لقد أبصرت ظَهْراً لم تستطع الملاءة السوداء أن تخفى شيئاً من تفاصيله . . على العكس . . لقد أعطته زيادة فى الاعتدال والطول . . وأبدته جميل الصنع . . بديع التكوين والتركيب . . وأظهرت الردفين فى بروز مستحب وفى استدارة لطيفة . . وشدتهما شداً خفيفاً بحيث بدا اهتزازهما أشبه برجرجة طبق من « الجلى » أو « الألماظية » . . ومن فوقهما بدا الخصر فى ضيق واتساق .

هذا عن الظهر . . أما عن الوجه ، فقد كان وجهاً فاتناً حقاً . . لقد كانت الفتاة فى الواقع تستحق أن يموت من أجلها محمود افندى . . وأكثر من محمود افندى . . لقد كنت أحس بالرثاء له ، عند ما كنت أفكر أنه سيموت من أجل فتاة . . ولكنى لم أكد أراها

حتى أحسست بالرثاء لها . . لأن محمود افندى فقط هو الذى سيموت من أجلها . . فقد كانت تستحق أن يموت من أجلها . . عشرة كمحمود افندى .

لقد أبصرت بعينيها من خلف البرقع نجلاوين سوداوين صافيتين ، لأهدابهما ظلال ، كظلال الشجرة المورقة فوق الغدير الصافى . . لقد كان الناظر إليهما لا يملك إلا أن يطبق عليهما بشفتيه فيوسعهما لثماً وتقبيلا . . أما الأنف والفم فقد بديا كذلك فى دقة عجيبة كأنما قد رسمهما رسام مبدع متفنن .

أما الصدر فقد بدا من خلال فتحة الملاءة فى امتلاء وبروز ، وقد رفع رفعة طبيعية بلا حاجة إلى « سوتيان » . . ومن أسفل الملاءة بدت ساقاها مخروطيتين تنتهيان بقدمين صغيرتين .

هذه هى الآنسة « تحية لف » التى سيموت — أو المفروض أنه سيموت — من أجلها محمود افندى . . والتى كنت على استعداد أنا نفسى — لو لم أكن ميتاً بالفعل — أن أموت أنا الآخر من أجلها .

وخرجنا إلى شارع « السد » بعد أن اجتزنا الحارة

التى كنت أعرفها باسم « درب المذبح » .. تاركين وراءنا عاصفة أثارتها الست « تحيه » أو « توحه » من الإعجاب والبصبصة » . مخلفين فى الجو خليطاً عجيباً من أبلغ آيات الغزل والتشبيب .. التى صدرت عالية من حناجر أهل الحارة من الرجال والصبية . . وكان أبلغها ذلك الصوت الذى تصاعد ملؤه الحماسة والقوة وقد أخذ صاحبه يصفق بيديه ، ويصيح فى نبرات موسيقية طويلة : « يابت ياللى زى كباب الحله » .

وقد حاولت أن أوجد وجهاً للشبه بين « توحه » وبين « كباب الحلة » فلم أستطع . . وقلت لنفسى : إنه تشبيه غريب فى بابه . . فقد تعوّدنا أن نسمع من باب الغزل تشبيهات بمختلف أنواع الحلوى ولكنها كلها معقولة . . فعند ما يقال : « ياباشا ياللى زى البغاشه » يكون هناك معنى للتشبيه . . ويكون هناك جامعاً بين المشبه والمشبه به . . وهو الرقة والحلاوة فى كل . . وكذلك عندما يشبه المحبوب « بالملبن » أو « بلهطة القشطه » يكون الجامع هو اللين والحلاوة والبياض فى كل . .

obeikandi.com

أما أن تشبهه « بكباب الحلة » فهو شيء يحتاج إلى شرح وتفسير .. ولكن أغلب ظني أن وجه الشبه هنا لابد وأنه فرط غرام صاحب التشبيه بالمشبه والمشبه به وفرط لهفته إلى كليهما .

واتجهت صاحبتنا يميناً فى شارع « السد » وسارت بضع خطوات ، ثم توقفت أمام دكان بقّال وسمعتها تطلب « رطل جبنه حلوم .. وبتعريفه فلفل اسود .. وبقرشين صاغ بصل .. وبتعريفه طرشى افرنجى (بس ما يكونش حرّاق) » .

ووقف محمود افندى فى انتظارها على قيد خطوات .. وهو كما هو .. يكاد من فرط الانتفاخ ينفجر .. يهز المذبة بإحدى يديه .. ويبرم بالأخرى شاربه .. وقد ازداد فى عينيه الحول وضوحاً من فرط استراق البصر ومن فرط النظر « من تحت لتحت »

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة والثلث ، ولم يبق على وفاة صاحبنا إلا عشر دقائق .. كنت أعلم أن معظمها سيقضيها فى انتظار « توحه » حتى تنتهى من شراء لوازمها

ثم تعبر الشارع إلى الرصيف الآخر أمام سيدى «الحبيبى» لتبتاع (خمسة أرغفة وبثلاثة مليمات فجل).

وبمجرد أن تعبر الشارع يعبر محمود افندى خلفها.. وقد ثبت بصره على ردفيها العجيبين أو على طبق «الألماظية» كما سبق لنا التشبيه.. وهو شارد الذهن عن كل ما حوله.. وهنا تحدث الفاجعة.. إذ يقبل أحد التاكسيات بسرعة جنونية مستهترة.. فيصدمه صدمة تكون هى القاتلة.

هذا هو ما يجب أن يحدث.. وهذا هو أيضاً ما يجب أن أمنعه.. فقد كان علىّ أن أمنع موت الرجل.. وأن أبقى له روحه فى جسده.. فما كنت فى حاجة إليها.

وبدأت أفكر.. وكانت العملية ـ عملية الإنقاذ ـ فى هذه المرة، أسهل بكثير مما سبقها.. أو هذا هو على الأقل ما بدا لى.. فقد كانت المسألة غاية فى البساطة وكان حلها أكثر بساطة.. فالرجل سيموت، لأن تاكسى سيصدمه أثناء عبوره الشارع.. فأضمن طريقة لمنع موته هو أن أمنع مرور التاكسى عند عبوره الشارع.

وأخيراً رأيت «تحيه» قد انتهت من شراء لوازمها..

وبدأت تعبر الشارع .. ثم رأيت محمود افندى يوشك أن يبدأ عبوره هو الآخر .. وفى تلك اللحظة لمحت تاكسى قد أقبل من ناحية « أبو الريش » .. منطلقاً بأقصى سرعة .

وهنا أحسست أن اللحظة الحرجة قد أزفت ، وأن العمل يتطلب منى سرعة خاطفة .. فقفزت من مكانى قفزة رائعة وحللت بها فى جسد راكب التاكسى ، وكانت العربة قد اقتربت من شارع « التلول » فقلت للسائق بسرعة : « اتجه إلى اليمين » ، ولكن السائق نظر إلىّ شزراً .. وبدا لى أنه لم يعجبه هذا الأمر المفاجىء منى ، وأنه لا ينوى تنفيذه .. فقفزت إلى جسده .. معيداً روح الراكب إلى جسدها كما كانت .. وبدأت أنا أنفذ بالفعل ذلك الأمر الذى أصدرته وأنا فى جسد الراكب .. ودرت بسرعة مخيفة فى شارع « التلول » .. دورة كادت تقلب العربة .. وتقتل بضعة أطفال يلعبون على باب الشارع لولا ستر من الله .. أو على الأصح .. لولا أن أرواحهم لم تكن مدرجة فى الكشف الذى أحمله .

وسمعت الراكب يصيح بى فى حنق وغضب : « أيها المجنون . . إلى أين ؟ » . . ولكنى لم ألق إليه بالا . . وقفزت من جسد السائق عائداً أدراجى . . تاركا العربة مندفعة فى شارع « التلول » .

ولكنى — لشدة دهشتى — وجدت عربة تاكسى أخرى قد أقبلت من نفس الاتجاه الذى أقبلت منه الأولى وانطلقت محاولة الاندفاع فى الطريق الذى حوّلت عنه العربة السابقة .

وأسوأ ما فى الأمر أن محمود افندى — لعنة الله عليه — كان لم يعبر الشارع حتى الآن . . فكأنى به لا ينوى العبور إلا فى اللحظة التى يضمن أن يلقى فيها حتفه .

ولم يكن الظرف ليحتمل منى أى بطء . . فقفزت إلى جسد السائق الجديد . . ولكنى لمحت وأنا فى طريقى إلى جسده . . عربة ثالثة مقبلة من بعيد ، وخلفها عربة رابعة وخامسة .

ووجدت أن المسألة قد أصبحت أصعب من أن

obeikandi.com

أحاول حلها بهذه الطريقة التى أتبعها . . لأن العربات ستتكاثر علىّ دون أن أستطيع تغيير اتجاهها جميعاً بنفسى ولابد أن إحداها ستستطيع الإفلات فتقتل محمود افندى — الذى ما زال يقف على الرصيف كأنه الديك الرومى — أثناء عبور الشارع .

وهنا خطرت لى فكرة هائلة وجدت فيها خير حل لهذه المشكلة التى أنا فيها . . فلم أكد أدفع بالعربة الثانية فى شارع التلول . . حتى قفزت من جسد السائق فحللت فى جسد عسكرى بوليس كان يقف أمام عربة « خيار » على باب الشارع . . ثم وقفت فى منتصف شارع السد ، وبدأت أحوّل المرور كله إلى طريق شارع التلول قائلا لأصحاب العربات إن الطريق مغلق وإنهم يمكنهم الذهاب إلى ميدان السيدة عن طريق شارع زين العابدين .

ونجحت الفكرة إلى أبعد حدود النجاح . . وأخليت شارع السد بأكمله لصاحبنا حتى يعبره فى أمان واطمئنان دون خوف من أن تصدمه حتى عربة يد .

وأدرت رأسى فجأة لأرى إذا كان صاحبنا قد انتهى

من العبور فوجدته قد بدأ العبور فعلا . . ولكن شد ما هالنى أن أجد قافلة من عربات التاكسى قد أقبلت على محمود افندى من الاتجاه الآخر . . أى من ناحية ميدان السيدة . . وأصابنى ارتباك شديد . . وقلت إن كل ما فعلت سيذهب سدى . . ولكن خطر لى وقتئذ خاطر عجيب . . لم أجد خيراً منه لإنقاذ صاحبنا من شر أعماله .

كان هذا الخاطر . . هو أن أحل فى جسد الفتاة « توحه » . . نفسها . .

هو خاطر عجيب ولا شك . . وقد أحسست من التفكير فيه بكثير من الخجل . . الخجل من أن أصبح فى آخر الزمن . . امرأة . . بملاءة لف . . ولكن لم يكن هناك بد من تنفيذه . . فالغاية تبرر الواسطة .

ولست أنكركم القول . . أننى أحسست أيضاً بشىء من النشوة إلى جانب الخجل . . فقد خيّل إلىّ أنه لا بد أن يكون ممتعاً . . ذلك الاحتلال منى للجسد الغض البض . . الناعم الطرى .

وتركت جسد العسكرى الأسمر الخشن . . الشائك الجاف . . لأحل فى ذلك الجسد اللين الشهى . . فكأننى انتقلت من زنزانة فى قره ميدان إلى مقصورة فى الأوبرا . . أو من جردل حمض فنيك إلى قفص منجه . . أو من قروانة عدس إلى صينية كنافة بالقشدة .

ولم أكد أحل فى جسد الفتاة حتى عدت أدراجى إلى الرصيف الآخر الذى كان محمود افندى على وشك أن يغادره لكى يعبر الشارع ، فلم يكد يرانى أعود حتى عاد هو الآخر وعدل عن عبور الشارع .

وتدفقت التاكسيات من هنا ومن هناك ، وخيل إلىّ أنها تنظر بغيظ إلى محمود افندى وكأنه فريسة قد أفلتت من الشرك . . ولكنى نظرت إليها ساخراً . . فقد كنت أعلم أن روح محمود افندى قد أنقذت . . وأنه لن يفكر بعد ذلك فى عبور الشارع .

وعدت بجسد الفتاة إلى درب المذبح لأبعد محمود افندى عن منطقة الخطر ، وسرت بجسدها بين آهات المعجبين وكلمات العشاق . . وقد اعترانى خجل شديد ،

فانى ما اعتدت قط أن أكون امرأة تنهاق إليها ألفاظ الغزل من كل جانب .

وأخيراً ، وبعد أن وثقت كل الثقة أن محمود افندى « الدهل » قد بات آمناً . . هممت بترك الجثة ولكنى قبل أن أتركه همست لنفسى ، إن طباخ السم بيدوقه ، وإنه ليس من العدل فى شىء أن أحل فى الجسد ثم أذهب عنه دون أن أتمتع به قليلا ، ولو حتى بطريق التحسس

ثم وجدتنى أتوقف . وأمد يدى . . فأدفع بها فى صدرى — أعنى صدر « توحه » — فأتحسس الثديين .

تبارك الله فيما خلق . . أهذان ثديان . . أم . . أم ماذا ؟ . . أى شىء أستطيع أن أشبه به هاتين الكرتين الساحرتين ، بدفئهما ، وليونتهما ، وتماسكهما واستدارتهما ، وحلمتيهما البارزتين . . أى شىء أستطيع أن أشبههما به . . لا شىء . . فانى لاشك أظلمهما بأى تشبيه . . فهما نسيج وحدهما .

وقبل أن أترك الجسد منحت محمود افندى ابتسامة ، وغمزت له بعينى . . ثم تركت الجسد ، وتركت محمود افندى يسوى أمره مع صاحبته . . وذهبت فى طريق .

الفصل التاسع

أبو السعد

كان موعدى مع الروح التالية — أو على الأصح الأرواح التالية — هو الساعة الخامسة . . وكنت أحس أن المسألة فى هذه المرة على كثير من الخطورة . . فقد بدا لى الحادث الذى ينتظر وقوعه سيكون حادثاً مروعاً . . وكنت أخشى كثيراً ألا أستطيع منعه . . فما تخيلت أن مثلى يمكنه أن يمنع تراماً قد نوى الخروج من شريطه وتحطيم بيت أو بيتين وقتل بضع أرواح . . بسهولة . . أو حتى بصعوبة . . فرغم أنى لم أكن بالضعيف أو الجبان . . ورغم أنى لم أكن أخشى الدخول فى صراع مع كائن من كان . . إلا أن فكرة الصراع مع ترام . . لم تكن بالشىء الذى ترتاح إليه نفسى . . وخاصة أننى قد مت صريع ترام .

obeikandl.com

وسريت من شارع السد إلى ميدان السيدة ، واتجهت إلى العتبة ، وأنا أعتصر الذهن علّى أجد وسيلة لمنع الترام من أن يركب رأسه ويحيد عن جادة الصواب ، فيخرج عن الشريط ويرتكب جريمته المروعة . . وأخذت أستعرض الحلول المقترحة أمامى الواحد تلو الآخر .

كان أول ما خطر لى هو أن أحل فى جسد السائق لأمنع وقوع الواقعة . . ولكنى استسخفت نفسى . . فما سبق لى أن اشتغلت سائق ترام قط . . وما كانت قدرتى فى قيادته . . بخير من قدرة ساسة البلد فى إدارة دفة الحكم . . وتخيلت نفسى بالبذلة الصفراء والطربوش يكاد يخفى أذنى ، وقد فصل بينه وبين رأسى منديل محلاّوى تدلّى على قفاى وعلى وجهى . . وأنا مندفع بالترام والكمسارى ينفخ فى مزماره محاولا إيقافى . . وأنا لا أعرف كيف أوقف الترام . . وكلما حاولت إيقافه ازدادت سرعته . . وأصاب ركابه فزع شديد ، فأخذوا يقذفون بأنفسهم منه ، وأخذ الناس يعدون خلفى بعرباتهم ودراجاتهم يصيحون بى ويهددوننى وأنا فى أشد

حالات الذعر والارتباك .. ثم ينتهى الأمر أخيراً بأن يخرج الترام عن شريطه ويحصد أرواح البشر دون أن أستطيع أن أفعل شيئاً .. لا .. هذا حل أحمق .

وخطر لى بعد ذلك أن أحل فى جسد الكسارى حتى أستطيع أن أوقف الترام بنفخة فى المزمار فى الوقت والمكان المناسبين . . وخطر لى أيضاً أن أحل فى أى جسد من أجساد غواة « الشعبطة » ، فأستطيع بذلك أن أجذب « السنجة » فأوقف الترام وقتما أشاء . . ولكنى استبعدت هذين الحلّين ، لأنى لم أكن أعرف بالضبط المكان الذى ستحدث فيه الحادثة ، وقد ينتج عن ذلك أننى ربما أوقف الترام قبل الحادثة بمسافة ، ثم يعاود السير ويرتكب الجريمة .. أو يرتكب الجريمة قبل أن أكون قد فكرت فى إيقافه .. لا .. لا .. هذا حل غير موفق .

وخطرت لى بعد ذلك حلول سريعة كانت كلها عديمة الجدوى . . فخطر لى مثلا أن أغير لافتة الترام فأجعله يذهب إلى السيدة بدلا من الإمام .. أو أفسد الترام

فأجعله غير قادر على السير . . أو أعلق عليه لافتة أحذر منه الناس فأقول مثلا : « راكب الترام مفقود والنازل منه مولود » . . أو أشترى الترام بأكمله كما سبق أن اشتراه غيرى من قبل . . أو أمنع المرور من شارع محمد على . . أو . . أو . . مئات من الخواطر تواردت على ذهنى . . وكلها كما قلت لا فائدة فيها .

وفجأة خطر لى خاطر . . جعلنى أصيح من فرط الطرب . . لقد برق فى رأسى كما تلوح فكرة لمخترع أعياه البحث عنها ، أو كما تلوح الأرض لمستكشف طال انتظاره لها . . وصحت كما صاح غيرى من قبل : لقد وجدتها . . لقد وجدتها .

وتنفست الصعداء . . وأحسست أن عبئاً قد رفع عن كاهلى . . حيث كان الحل غاية فى البساطة . . ولقد كنت غبياً لأننى أجهدت ذهنى بالتفكير فى كل تلك الحلول السابقة .

« أبو السعد » هو مفتاح الموقف . . « أبو السعد افندى » الذى قد كتب عنه فى المذكرة التى أحملها . .

أمر بألا تصعد روحه مع الأرواح الصاعدة . .

« أبو السعد افندى » هو الشخص الذى لا يجب أن يموت فى هذه الحادثة . . لأنه مطلوب لحوادث أخرى مماثلة .

إذاً لقد وضح الأمر . . فإنهم يعتمدون على نحس « أبو السعد افندى » لإجراء مثل هذه العمليات المروعة . .

فما علىّ لكى أمنع الكارثة ، إلا أن أرحم الترام وراكبيه من نحسه . . فأبعده عنهم . . لقد كانت المسألة غاية فى البساطة . . ولن تحتاج لأى عنف أو دخول فى صراع مع الترام .

ودخلت فى مقهى فى العتبة ، وجلست أرقب ساعة البريد ، حتى بلغت الخامسة إلا خمس دقائق . .

فأبصرت ترام (١٣) قد أقبل . . فلم أشك فى أنه الترام المطلوب . . وسريت إليه أجول بين ركابه حتى وقع بصرى على شخص أوحى إلىّ منظره أنه لا بد أن يكون هو « أبو السعد افندى » ، وفعلا لم تمض لحظة حتى سمعت صاحباً له قد جلس إلى جواره يناديه بأبى السعد .

وأخذت أتأمل الرجل وقد تواردت على ذهنى فصول

النحس وحوادث المنحوسين الذى صادفتهم من قبل .

وخشيت من ضياع الوقت . . فهبطت إلى جسده بسرعة . . ولم يكد الترام يقف فى المحطة التالية حتى قفزت منه وأخذت أعدو بأقصى سرعة لأبتعد عنه وعن الشارع بأكمله.

ووقفت فى شارع الأزهر وأنا ـ أو أبو السعد افندى ـ ألهث من فرط التعب . . والناس يحدجوننى بدهشة . . وأحسست بالغبطة . . وتملكنى شىء من الغرور . فقد استطعت أن أمنع حادثة مروعة بأبسط الطرق . . إننى لا شك رجل ذكى . . رغم ما كان يصيبنى فى بعض أوقات حياتى من غباء مطبق . . ولكنى الآن شعرت أننى حقاً على كثير من الذكاء .

وفيما أنا واقف فى جسد أبو السعد افندى أمتدح لنفسى ذكاءها أحسست حولى بشىء غير عادى ، ورأيت روحى تصعد من الجسد رغم أننى ، ورأيت روح أبو السعد افندى تهبط فيه رغم أننى أيضاً . . ولم تكد الروح تهبط فى الجسد حتى رأيت الرجل يعدو بأقصى سرعة ليلحق الترام . . وأصابنى شبه ذهول . . إذ لم أدر ما الذى

أفقدنى تلك السيطرة التى كنت أتمتع بها . . ولم أجد فى يدى العصا . . ولم أجد الكشف ولا الجهاز .

عجباً . . ماذا حدث ؟ ! . وأين العصا . . وأين ذهبت قدرتى على تحريك الأرواح . . وتلفت حولى . . فإذا بى أجد عزرائيل قد وقف بجوارى ! . .

يالى من أحمق مأفون ! ! . أهذا هو الذكاء الذى أتمتع به . . أهناك على ظهر الأرض أو فى طباق السماء من هو أغبى منى ! ! .

وأى غباء يمكن أن يكون أكثر من ذلك الذى دفعنى إلى أن أحتل جسد أبى السعد افندى . . . وأنا أعلم أن ما به من نحس كان كافياً لأن يخرج ترام عن شريطه ، ويقتل عشرين شخصاً ، ويهدم بيتين . . أى غباء ذلك الذى دفعنى لأن احتل جسده مع علمى بأن السماء تجد نحسه ضرورة للنوازل والكوارث .

وخطر لى أن أعدو خلفه فأقبض عليه من (زمارة رقبته) وأمثل به أفظع تمثيل . . ولكنى علمت أن عزرائيل سيقف بينى وبينه . . فهو يعتبره من أعوانه فى الأرض

وعلمت أنه لابد قد وصل إلى الترام . . وأن الحادث لا محالة واقع .

ونظرت إلى عزرائيل شزراً . . فبادلنى نفس النظرة . . وبدا لى أنه ينوى أن يصب علىّ جام غضبه ، فعولت على أن أهاجمه قبل أن يهاجمنى وتصنعت الهدوء ، وقلت له متهكماً وأنا أشير إلى وجهه :

ـ امسح الأحمر الموجود فى ذقنك . . إن صاحبتك تستعمل أحمر من نوع ردىء . . أنصحك بأن تسرق لها إصبعاً (ماكس فاكتور) .

وتصعدت الدماء فى وجهه وقال حانقاً :

ـ كفى هذرا . . الأحمر هذا تستعملونه فى الأرض لكى تغشوا بعضكم بعضاً . . أما عندنا فى السماء . . . .

ـ أحمر طبيعى ؟

ـ طبيعى أو غير طبيعى . . هذا ليس من شأنك . قل لى ماهذا العبث الذى صنعته . . وهل هذا هو الوعد الذى وعدته لى . . هل تعتبر نفسك رجلا ؟

ـ احفظ لسانك . . وكف عن قلة الأدب . . فأنت تعرف تماماً أنى رجل . وإذا لم تسكن واثقاً من

obeikandl.com

ذلك .. فيمكنك فى (فركة كعب) أن تفحص جسدى فى قرافة المجاورين .

وهنا بلغ به الغيظ أشده ، وخيل إلىّ أنى ألمح شرراً يتطاير من عينيه . . ولكنى لم أخف . . وماذا أخشى منه وهو لا يملك إلا الموت . . وأردفت أقول فى نبرات هادئة :

— هل تنوى حقاً أن تترك الترام يفعل فعلته ؟ .

فصاح فى دهشة :

— أنوى حقاً ؟ ! . . هذا (شغل) . . هذا هو واجبى الذى يجب أن أؤديه . . ألا يكفى ذلك الارتباك الذى أحدثته خلال اليوم . . وأنا مطمئن إلى وعدك . لِمَ جعلتنى أركن إليك . . ثم حنثت بوعدك . . ولكنى أنا المخطىء . . إن الذنب كله ذنبى . . كان يجب أن أتوقع ذلك . . ولكنك خدعتنى . . وبدا لى من مظهرك أننى أستطيع الاعتماد عليك . . ماذا أفعل فى الارتباك الذى أحدثته لى ؟ .

وبدت فى صوته رنة حزينة حركت قلبى فقلت له فى شىء من العطف :

— لا شيء . . المسألة يمكن تداركها . . ولن تستغرق منا أكثر من ربع ساعة نمر خلالها على الأرواح فنقبضها بالجملة . . في هدوء وسكينة . . أم تظن أنه من المحتم علينا أن نقبضها بتلك الكيفية المزعجة المبينة بالكشف . . غرق . . وهدم . . .

— هذا هو الذي كان يجب عمله . . فالمسألة لا بد لها من إخراج جيد . . ولا بد أن تتنوع أسباب الموت حتى تكون فجيعة الناس أوقع . . ولكنا لم يعد أمامنا الآن لإصلاح ما أفسدت إلا أن نقبضها جملة وأن نأخذها « سلق بيض » .

وتحرك عزرائيل بعد أن أشار إليّ بأن أتبعه . . ووصلنا إلى شارع محمد علي ، فوجدت الترام قد أصابه عطل فتوقف حتى استطاع ابو السعد افندي اللحاق به ، ثم تابع السير . . وبعد لحظات قصار وقعت الواقعة .

وطلب مني عزرائيل أن أنتظره حتى يجمع الأرواح ورأيته يحملها كأنه يجمع أعقاب السجائر . . ثم تركنا المكان بضجيجه وعجيجه وصراخه ونواحه . . وسرينا

جنباً إلى جنب صاعدين إلى السماء ، ثم توقف عزرائيل برهة وقال لى معاتباً :

ـــ ألا تشعر بخجل شديد من نفسك ؟

ـــ خجل ؟ ! ! . . ولِمَ ؟

ـــ من ذلك العبث والحماقة التى ظللت ترتكبها طول اليوم .

ـــ عبث وحماقة ؟ . . والله لولا أبو النحس . . لأريتك أن ما فعلته لم يكن عبثاً ولا حماقة . . ولأعطيتك درساً فى كيفية القيام بواجبك . . ولعلّمتك كيف يجب أن يكون الموت . . إن ما تفعله هو الحمق . . لا ما فعلته أنا . . لو تعلم أى أرواح كنت أنوى أن أقبضها وأى نظم كنت أنوى وضعها للموت . . لعلمت أنى كنت سأرفع مقامك بين البشر ، وأجعلهم يجلونك ويحترمونك . . ولكن أنت وشأنك . . لقد قالوا فى الأرض : « لا تصنع المعروف فى غير أهله » والظاهر أن هذا القول ينطبق أيضاً فى السماء .

ونظر إلىّ عزرائيل نظرة ازدراء ولم يزد على أن قال :

— مسكين .. بنى آدم !!

تماما كما نوجه نحن القول إلى حمار ، وأثار قوله حنق فأجبته :

— معك حق . . لو لم أكن « بنى آدم » لما أطعتك ورضيت أن أعود معك إلى الأرض . . ولما حاولت التستر عليك وعلى أخطائك . . ولما سكت عن مطالبتك بتعويض لما سببته لى من إزعاج . . ولكننا على أية حال ما زلنا فيها . . إنى لن أعود إلى الأرض . . وسأسبب لك فضيحة كبرى . . وسأنشر بين أهل السماء خبر غرامك . . وأحدثهم عن تسللك إلى الجنة لكى تقابل عشيقتك . . وتقضى معها طيلة اليوم . . تاركا أعمالك فى أيدى نفر من البشر . . والله لأجعلن يومك أسود كعملك . . ولأرينك أننى حقاً بنى آدم . . يا عزرائيل النحس .

ومد عزرائيل يده فوضعها على فمى وقد أصابه ذعر شديد ، وقال فى صوت هامس :

— لا ترفع صوتك هكذا . . أيها المجنون . .

وإلا سمعك أحد من أهل السماء .. والله ما رأيت مثلك أرعن أهوج .. لقد صدق مثلكم القائل : « لا تقرب المجنون ولا تدع المجنون يقربك » .. ماذا أغضبك من قولى لك « بنى آدم » ألست بنى آدم ... على أية حال « حقك علىّ .. هات راسك » .

ثم مد كفيه فقبض بهما على رأسى وطبع عليها قبلة حارة كانت بمثابة عربون الصلح .. ونظرت إليه وقلت مستضحكا :

ـــ حدثنى كيف قضيت يومك .

ـــ لقد كان يوماً عظيما .. حافلا .. لقد كانت مدهشة « آه لو كنت معى » .. ولكن هيا بنا الآن فليس لدينا وقت للحديث .. إننى أود أن أقبض الأرواح التى أنقذتها .. قبل أن يحل موعد الروح التالية .

وأمسك الكشف الذى به بيان الأرواح وأخذ يقرأ :

« حسين قدرى .. الساعة الخامسة والنصف .. عربه بويك مقلوبة فى شارع الهرم .. أمامى الآن عشرون دقيقة لأقبض فيها الخمس أرواح الأولى .. وإنى أفضل

أن أذهب وحدى حتى لا تعرقلنى صحبتك .

— ولكنى لن أعرقلك .

— ولِمَ تود أن تصحبنى ؟

— لا تسخر منى .. إنى أود أن أرى زيزى مرة أخرى.

— ولهذا السبب نفسه .. لا أود أن أصحبك .

— لا تكن عنيداً .. ماذا ستضيرك رؤيتى إياها !

— لا .. لا .. إنك رجل شديد الضعف أمام النساء .. وستأخذك بها الرحمة .. كما أخذتك من قبل فترجونى أن أتركها .. وتدخل معى فى مناقشة .. وتضيع وقتى سدى .. وأنا فى حاجة إلى كل دقيقة .

— إذا كنت تعلم ذلك ، فلِمَ لا تكف نفسك مؤونة المناقشة .. وتتركها من أجلى .

— ألم أقل لك ؟ هذا هو ما كنت أخشاه .. ياسيدى لا فائدة .. إن روحها لا بد ستؤخذ .. لا فائدة فى الرجاء .. لأنى لا أملك قبوله .

— إذاً فلا أقل من أن تأخذنى لأتزود منها بنظرة

أخيرة . . وأعدك ألا أطالبك بإبقائها . . دعنى أتملى من روحها الطاهرة الجميلة .

— روحها ؟ ؟ . . إذا كانت المسألة مسألة روح . . فإنى سأحضر لك روحها دون أن أحملك عناء الإنتقال . . انتهينا ؟

وأخذت أفكر برهة . . روحها ؟ ! ! . . وماذا عساى أصنع بروحها ؟ . . ماذا عساى أن أجد فى روحها المجرّدة من شعرها المسترسل . . وساقيها الممتلئتين . . وصدرها المكتنز . . ما عساى أن أفعل بالروح بعد أن فارقت الجسد ؟

ورأيت عزرائيل يرقبنى من طرف خفى فقلت له :

— إنى أريد الجسد . . لا الروح .

— وماذا تفعل بجسد بلا روح . . جسد هامد لا حياة فيه .

— إذاً فإنى أريد الروح فى الجسد .

وبدا عليه الضيق وقال وقد نفد صبره :

— لا تكن عنيداً كالأطفال . سأذهب الآن . وموعدنا فى العربة البويك . . إلى اللقاء .

وانطلق عزرائيل وخلفنى وحيدا .

الفصل العاشر

فى عربة «بويك»

تركنى عزرائيل وحيداً فانطلقت أستبقه إلى الضحية التالية . . ولم يصعب على العثور عليها ، فقد لفتت نظرى العربة الأنيقة الزرقاء الواقفة على الجانب الآخر أمام حديقة الحيوان ووجدت على مقعد القيادة شاباً . . يصح أن يكون نموذجاً لذلك النوع الذى نطلق عليه «ابن ذوات» . . ولن أحاول أن أنتهز الفرصة فأحمل على هذا النوع . . فإننى أكره الانتقاد . . لأننا كثيراً ما ننتقد أناساً من الانتقاد ، فلا تكاد الظروف تضعنا فى مواضعهم حتى نصبح شراً منهم ونفعل شراً مما فعلوا ، وقد علمتنى الظروف ألا أنتقد أمرأ لأننى لو استطعت أن أرى بعينيه وأفكر بعقله لما فعلت إلا كما فعل . . بدليل أنه هو نفسه لا يستنكر ما يفعل . . فالظروف المحيطة به قد أرته ما يفعل — وما بدا لنا منكرا —

obeikandi.com

شيئاً لا غبار عليه، ولا حرج من إتيانه. فالذى لا يقامر ينتقد المقامر .. ولو أحاطت به الظروف التى أحاطت بالمقامر، لرأى القمار شيئاً لا حرج منه ولا عيب فيه .. والشخص الذى لا يحب، ينتقد العشاق ويتهمهم بالضعف والسخف، ولو مسه الحب لأرداه صريعاً ولعلّه كيف لا ينتقد العشاق وأفعالهم .. وإنى لأعرف صاحباً لى كان ينتقد آخر لأنه يتحدث فى التليفون مع صاحبته فترة طويلة . . وكان يتعجب منه ويتساءل: كيف يطيق الكلام كل هذه المدة .. ومرت الأيام وأحبّ صاحبى فإذا به يجلس إلى التليفون ليشغله كل يوم ما يقرب من الساعة، ونسى سابق دهشته وانتقاده .

أجل لست أرى داعياً لأن أنتقد صاحبنا «ابن الذوات» إذ من يدرى لو أتاح لى الله غناه . . وأعطانى عربة بويك وملبساً أنيقاً وشكلا وسيما . . وقدرة على إغراء الفتيات .. من يدرى أننى كنت لا أفعل فعله . . فأضيع عمرى .. أنتهب اللذات وأقتنص المتعات .. من يدرى أن تعفني (إذا كان هناك تعفف) ليس إلا مجرد (قُصر ديل).

نظرت إلى الفتى فرأيته على حد قولهم « يشف ويرف » بما كتته النايلون الناصعة البياض ، والياقة « الفان هوزن » والكرافتة الأنيقة . . والمنديل الحرير من نوع الكرافته . . وقد وضع فى عروة السترة زهرة بيضاء صغيرة . ووضع على عينيه منظاراً أمريكياً مذهب الإطار . . وبدا فى جملته غاية فى الوسامة والأناقة .

وأقول الحق : إننى استخسرته فى الموت . . وعجبت لعزرائيل النبى . . كيف ضاقت به الدنيا فلم يجد سوى هذا الفتى اليافع النضير ليقبض روحه . . وتمنيت لو استطعت أن أقنع عزرائيل أن يأخذنى بدله . . حقيقة إنى شاب يافع مثله . . ولكنى قد مت وانتهى الأمر . . وليس بى شديد رغبة فى العودة إلى الحياة . . لأننى لن أكون خيراً مما أنا . . فماذا يضيره لو قبل البدل . . وصعد بى إلى السماء على أننى (حسين قدرى) . . وترك الفتى يتمتع بشبابه وماله ووسامته . . من يستطيع أن يكتشف أننى لست الروح المطلوبة ؟ . . من يستطيع أن يميزنى وسط تلك الأرواح الحاشدة . . وخاصة إذا راقبت الفتى جيداً

حتى أستطيع تقليده فى السماء إذا ما قبل عزرائيل البدل .

وبدأت أنظر إلى الفتى نظرة فاحصة شاملة . . وأرقب حركاته جيداً . . وأحسست بالطمأنينة لأنى لم أجد به شيئاً يصعب تقليده . . اللهم إلا ذلك المنديل الذى وضعه فى كمه . . . فإنى أذكر أنى قد حاولت ذلك الأمر فى حياتى بضع مرات مقلداً أبناء الذوات ، فكانت النتيجة أننى عندما احتجت إلى المنديل بحثت عنه فى جيبى ناسياً أننى وضعته فى كمى . . فلما لم أجده . . اضطررت إلى أن أتمخط فى يدى . . كأبناء السبيل . . ولم أكتشف المنديل إلا عند ما عدت إلى البيت إذ سقط منى وأنا أخلع السترة .

ولكنى تذكرت فجأة أننى لن أحتاج إلى وضع المنديل فى الكم . . لأنه لن يكون معى منديل ولا كم . . فالمفروض إذا ما صعدت روح الفتى أنها ستصعد بلا جاكته نايلون . . وبلا نظاره أمريكانى . . وبلا عربه بويك . . قد يكون بالفتى رغبة فى أخذها معه . . حتى يبدو أرستقراطياً بين بقية الأرواح من أمثال عم حنفى . . ولكنى لا أظن عزرائيل سيسمح له بذلك .

وفيما أنا منهمك فى التفكير فى هذه الخواطر .. وقد « انجحصت » فى مؤخرة العربة .. وأحسست بشىء من العظمة والنفخة .. فما اعتدت فى حياتى على العربات البويك ولا غير البويك .. لأنى كنت أجيد استخدام ساقى .. وكنت دائماً أقنع نفسى أن المشى هو خير رياضة للبدن .. وإنه يقوى عضلات الساقين . رحمة الله علىّ .. لقد كنت حماراً كبيراً .. أحاول أن أقنع نفسى دائماً بأن الخير فيما أعطانى الله .

أقول فبينما أنا منهمك فى التفكير فى هذه الخواطر حمل إلىّ النسيم شذى عطر نسوى نفاذ .. وتلفت بعينى فرأيتها مقبلة ؟!!

قاتلنى الله .. إننى ما زلت كما أنا .. لقد ظننت الموت سيجعل منى مخلوقاً تقياً وقوراً ، وسيعلمنى الزهد والورع .. ولكن لا والله ما علمنى شيئاً من هذا .. إننى أنا هو أنا .. ولهان الدنيا ولهان الآخرة .. ما زلت أرانى صريع كل غانية .. قتيل كل فاتنة .. كل حسناء أراها أردد فى نفسى قول الشاعر : « هذه فاتنة

الدنيا وحسناء الزمان ، وكل ساحرة ألقاها .. أقول إنها توأم روحي ونصف نفسي .. حتى لكأني بحسان الدنيا كلها توائم نفسي .. ما أبصرت واحدة منهن إلا وقلت لنفسي إن هذا هو الحب من أول نظره .

والآن — وأنا لست إلا روحاً مفروضاً فيها أنها تقية صالحة — لم أكد أبصر صاحبتنا مقبلة حتى قفزت من مكاني وأخذت أحملق فيها بنهم وبودي لو استطعت أن آكلها .

ماذا أقول في شعرها الشديد الحلكة وعينيها السوداوين الصافيتين .. وقد بدتا لي كأنهما فوهتي مدفع تصوب منهما صاحبتهما نظرات « يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به »

والله لو لم أكن أنا نفسي (ميت جاهز) ولو لم أكن صريع ترام .. لقلت إن الفتاة قد أصابتني بنظرة صرعتني .. لقد كانت الفتاة من نوع خطر .. ولست أدري كيف يسمحون لها هكذا بالسير في الطرقات مكشوفة العينين .. وكيف لم تعتبر « المحافظة » عينيها سلاحاً خطراً . وكيف أجازت لها أن تسير دون أن تحمل « رخصة حمل سلاح ؟!! » .

دلفت الفتاة إلى العربة فى رشاقة وخفة ، ومدت يدها البضة إلى الفتى فرفعها إلى شفتيه وطبع عليها قبلة رقيقة .

وأدار الفتى العربة وبدأنا السير . وبعد لحظة سمعت الفتاة تقول :

— « ارفع يدك . عيب »

ومددت رأسى لأرى ما هذا العيب الذى يفعله الفتى بيده ، فرأيته قد نقل « القتيس » فى الثالث وترك يده تتحسس ساق الفتاة . فقلت فى نفسى ، وبودى لو كنت مكانه :

— استغفر الله العظيم .

ولم يرفع الفتى يده بالطبع بل تركها مكانها ورأيت الفتاة تسند رأسها على كتفه .. وخرجت من صدرها « تنهيدة » وسمعتها تقول فى صوت رقيق :

— لست أدرى لِمَ أحس بانقباض اليوم !!

وكنت أنا أدرى طبعاً .. وأحسست بالعطف يملأ نفسى على هذين العاشقين السعيدين . وقلت لنفسى : والله يا عزرائيل النحس .. لن أمكنك من أن تفسد عليهما يومهما ..

obeikandl.com

سأعرف كيف أقفك عند حدك . . تقضى يومك مرتمياً في أحضان عشيقتك . . ثم تهبط بعد ذلك فتفرّق الأحباب دون أدنى شفقة منك ولا رحمة .

وفى تلك اللحظة أحسست بالعربة تسرع وتمنيت لو استطعت أن أحذره ، ولكن صوتى لم يكن يصل إليه . وعدت أقول فى نفسى مخاطباً عزرائيل :

— أنانى . . جامد العقل . . قليل التصرف . . تماماً كالموظف الغبى الذى يحاول أن ينفذ القانون بحذافيره .

وهنا رأيت الفتاة تمد شفتيها تتحسس بهما رقبة الفتى ثم ذقنه ، وتقترب من شفتيه شيئاً فشيئاً . . وأحسست بنشوة جارفة ولذة عجيبة . . وأردفت أقول لنفسى مخاطباً عزرائيل :

— ما يضيره هذا الغبى لو تصرف قليلا . . فاستبدل بالفتى اليافع مريضاً أو عجوزاً .

ووصلت شفتا الفتاة إلى شفتى الفتى وأخذتا تمساهما مساً خفيفاً . . وهنا رأيت الفتى قد أمسك رأس الفتاة بكلتا يديه وضغط شفتيها بشفتيه ضغطاً عنيفا .

ونظرت إلى عجلة القيادة فوجدتها تتأرجح فقفز شعر

رأسى .. وفى غمضة عين كان قد انتهى الأمر ورقدت العربة البويك مهشمة على أحد جنبيها بعد أن لفت على نفسها بضع لفات .. ورأيت عزرائيل قد وقف أمامى وقد قبض على روح الفتى .

وتملكنى الغضب فهجمت عليه صائحاً :

ـــ اترك الروح .. اسمع نصيحتى فهذا خير لك . قلت لك أعد الروح إلى صاحبها .. وإلا جعلتك تندم مدى حياتك

وربت عزرائيل على كتفى مهدئاً وقال :

ـــ هدىء نفسك .. ولا تكن أحمق .. لقد قلت لك إن هذا شغل وإننى لا بد أن أقوم بواجبى .. ولا أملك أن أبدل فيه .. تعال معى .. نتمشى قليلا ، إننى أعلم أن أعصابك ثائرة وفى حاجة إلى الهدوء .

وسرت بجواره وقد أخذت ثائرتى تهدأ رويداً رويداً وبعد برهة التفت إلىّ عزرائيل قائلا :

ـــ والآن . أتسمح لى أن أعيدك إلى جسدك ؟

ـــ مادام لا بد من عودتى .. ومادام لم يعد من الحياة بد .. فعد بى .

الفصل الحادى عشر

فى السجن السفلى

وسرينا فى الهواء . . ووصلنا أخيراً إلى حيث الجسد قد ووري الثرى . . وأحسست فجأة بضيق شديد كالذى يشعر به المرء عندما يحشر نفسه فى بذلة ضيقة . وشعرت أنى دخلت الأسر بعد طول حرية وانطلاق .

وحاولت الحركة فإذا بى لا أستطيعها ، وفتحت عينى فلم أبصر سوى ظلمة فوق ظلمة . . ونفذت إلى أنفى رائحة كريهة عفنة ، وشعرت بالندم يخزنى . . على استكانتى لعزرائيل ورضائى العودة معه إلى هذه الدار المكروهة بعد أن انطلقت من إسارها .

ولكن الظلمة لم تطل . . فقد بدا لى بصيص من ضوء . . وأنعمت البصر فيما حولى فإذا بى فى جوف القبر الذى قد ثوى فيه جسدى . . وإذا بى أرى عزرائيل قد أقبل علىّ من فتحة فى أعلاه وسألنى باسماً :

ـ كيف أنت الآن .

فأجبته فى غضب وانفعال :

ـ على شر حال ! ! لا لا ياسيدى لم تكن هذه شهامة منك . . أرجوك أن تعيدنى . . أتوسل إليك . . هذه الدار لا تطاق .

وكنت على حق فى انفعالى وغضبى . فقد كان بى شعور القاطن فى « جاردن ستى » الذى أعادوه فجأة إلى « سيدى زينهم » أو « عشش الترجمان » .

وربت عزرائيل على كتفى وأجاب :

ـ هدىء من روعك . . لا يمكن أن أعيدك الآن فدورك لم يأت بعد ، ولكنى أعدك وعد عزرائيل . . أنى سأعيدك فى أقرب فرصة . . وسأحاول جهدى تقديم دورك ما استطعت .

وشعرت باليأس يتملكنى . . ولكن لم يكن هناك بد من الاستسلام لقضاء الله ، وبدأت أعزى نفسى بأن عودتى لاشك ستسر أهلى أشد سرور وتذهب عنهم الحزن واللوعة التى أصابتهم بفقدى .

obeikandl.com

ونهضت من مكانى فإذا بى عارى الجسد .

لعنة الله على أهل الأرض . . لقد أخجلونى أمام عزرائيل . . حتى الجسد قد سلبوه كفنه الذى تدثر به .

ونظرت إلى عزرائيل متسائلا :

— ألا ترى أنى لا أستطيع الخروج بهذه الهيئة . . وإلا ظننى الناس مجنونا . . وزجوا بى فى مستشفى المجاذيب .

وصدق عزرائيل على قولى وأجابنى أنه على استعداد لإحضار ما يلزمنى من الملابس . . فطلبت منه أن يأتينى من البيت بثياب كاملة وأن لا ينسى عدة الحلاقة وكمية من النقود . .

وعاد عزرائيل سريعاً يحمل ما طلبت وأخبرنى أنه سرى بين أهل الدار دون أن يشعر به أحد وإنه لم يجد أية صعوبة فى إحضار الملابس . . فقد كانت ما تزال فى مكانها الذى وصفته له .

وسألته عن حال أهل الدار وعن مبلغ ما بهم من حزن وأسى . . فقد كنت أصور فى رأسى وقع المفاجأة التى سأفاجئهم بها وأتخيل مبلغ ما سيصيبهم من فرح وسعادة.

وصمت عزرائيل لحظة ، ثم سألنى سؤالا أدهشنى بعض الشىء :

ـــ أكنت مؤمناً على حياتك ؟

ـــ نعم . . ولكن لِمَ السؤال ؟

ـــ أغلب ظنى أنهم قد قبضوا التأمين . . فقد كان حديثه هو ما يشغلهم . ويخيل إلىّ أن فى نفوسهم بعض السخط عليك لأنك لم تزد من قيمته . . وكذلك سمعتهم يتحدثون عن القضية التى قد رفعوها على شركة الترام . . وهم يقولون أنهم ينتظرون أن يحصلوا منها على مبلغ عشرة آلاف جنيه . . تعويضاً لهم عن شخصك العزيز .

وقهقه عزرائيل :

ـــ الظاهر أن موتك كان « لقطة » .

وتملكنى الوجوم « وهرشت » رأسى بيدى مستغرقاً فى التفكير .

لقد كان الشىء الوحيد الذى يسبب لى التعزية فى عودتى إلى الحياة . . هو ذلك الفرح الذى كنت أتوقع أن يغمر الأهل والأحباب . . ولكن يخيل لى الآن أن عودتى

ستسبب لهم خسارة ما بعدها خسارة .. وستحرمهم مبلغاً ما كانوا يحلمون به .. وستسبب لهم فجيعة أهون منها فجيعة وفاتى .

ولم أستطع أن أمنع دمعتين سالتا على خدى الغائرين ونظرت إلى عزرائيل فى يأس وقنوط وسألته متوسلا :

— خذنى معك وارحمنى من هذه الدار .. أليس فى قلبك بعض الرحمة ؟! لقد نجدتك فيما سبق .. أفلا تنجدنى الآن ؟ .

ورق عزرائيل لحالى ، وأحس لى الرثاء ، ولمحت دمعة تترقرق فى عينيه .. لقد بكى عزرائيل من أجلى :

— هون عليك ولا تبتئس .. وثق أننى سأعيدك فى أقرب وقت .. فسأحشر اسمك فى أول دفعة نقبضها من الأرواح .

وأحسست بعد هذا الوعد من عزرائيل بشىء كثير من الراحة والاطمئنان وصممت ألا أغادر مكانى حتى يبر بوعده ، ولكنى شعرت « بقرصة الجوع » تلذع أحشائى فسألته أن يحضر لى طعاماً .

obeikandl.com

وعاد عزرائيل بعد لحظة ومعه « سندوتش طعمية » وقطعتان من « السجق والطحال » خطفهما من أول بائع صادفه فى الشارع فدفع بهما إلىّ وانصرف إلى سبيله .

وبعد هنيهة استغرقت فى النوم فرأيت فيما يرى النائم أن عزرائيل قد برّ بوعده فعاد إلىّ وصعد بى إلى السماء وغاب عنى برهة .. فأخذت أجوب السماء وحدى أسلّى نفسى بما فيها من مشاهد ومناظر . . فوجدت نفسى أخيراً أمام باب ضخم أنيق ، فانتهزت غفلة من الحارس ودلفت منه إلى الداخل .. فرأيت ما أذهلنى وأثملنى . . ولم يداخلنى ريب فى أن هذه هى الجنة .

ووقفت وراء كومة من العشب الأخضر أرقب ثلاثاً من الحور العين . . عابثات لاهيات على شاطىء نهر من شهد مصفى ، وشعرت أنى لا أود مغادرة المكان ، ولكنى خشيت أن يفتقدنى عزرائيل .

وأردت أن أعود أدراجى ، ولكننى ضللت الطريق . وظللت أتخبط على غير هدى .. حتى رأيت باباً أضخم من الأول .. ولكنه أقبح منظراً . . وتقدمت من حارسه عله

يدلنى على الطريق . ولكنى ما كدت أقترب منه حتى أحسست بيدين قويتين تقبضان علىّ وتقذفان بى إلى داخله .

وشعرت بلهب يلفح وجهى ، فعلمت أنى فى جهنم وبئس المصير . . وجاهدت فى أن أفر ، ولكنى أحسست أنى عاجز عن الحركة . . وسمعت ضجيجاً يصم الآذان ورأيت حراس الجحيم بوجوههم المفزعة ورماحهم الملتهبة وأبصرت كبيرهم يغذى النار بالوقود ، وزبانى جهنم يحملهم الحراس ويقذفون بهم فى اللهب .

وأفقت من نومى فزعا مرتاعا . . فوجدت عزرائيل أمامى يبتسم فى رفق . . وأخبرنى أنه قد برّ بوعده فحشر اسمى فى أول كشف ، وأنه على استعداد للصعود بى إلى السماء .

ولم يبد علىّ الفرح الذى كان ينتظره عزرائيل . . فلم يخف تعجبه ، وسألنى عن العلة . . فقصصت عليه ما رأيته فى الحلم وقلت له إنى أخشى أن يتحقق .

وفكر عزرائيل قليلا ثم أجاب :

— سأرد إليك جميل صنيعك . . وأصنع معك معروفاً لم أصنعه مع أحد سواك من البشر فأجعلك